



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 08 ماي 1945. قالمقمة



كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

رقم التسجيل: .....

الرقم التسلسلي: .....

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تخصص فلسفة اجتماعية بعنوان:

## أزمة التقنية في الفلسفة الغربية هيرت ماركيز أنموذجاً

إعداد الطالبتين:

بوشيهب فاطمة

سلاطنية مروة

أعضاء اللجنة المناقشة:

المناقش	رئيس اللجنة	المشرف
أ.د. مجري رابح	أ.د. كحول سعودي	أ. العالم عبد الحميد

السنة الجامعية: 2016/2017 / 1437/1438هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

**التقدم التكنولوجي لا  
يزيد عن أنه يؤدي بالمجتمع إلى  
السير إلى الخلف بكفاءة أكبر**

جلال أمين

## شكر وتقدير

الحمد لله الذي أذعم علينا بنعمة العقل وأمدنا بالقوة والعزيمة لإنجاز

هذا البحث

فواللهم لك الحمد والشكر على كل حال

ونتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف الذي أعاننا بإشرافه

وتوجيهه

الأستاذ الدكتور: مجاي رابع على مناقشته لهذا البحث

الأستاذ الدكتور: كحول سعودي على رئاسته للجلسة العلمية

ونتقدم بالشكر كذلك إلى كل من ساعدنا على إتمام هذا البحث

الفلسفي.

فواللهم أجعل هذا العمل خالصاً لوجهك ونافعاً لقارئه

## إهداء فاطمة

بعد بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

"وقل ربي زدني علماً" وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً

الشكر لله تعالى الذي أرادنا أن نكون في هذا المقام ونصل إلى ما نحن عليه فوهبنا القوة

والصبر منذ التقاطنا الحروف الأولى إلى غاية إنجاز هذا البحث

وكما أتوجه بشكري إلى:

من أرضعتني الحب والحنان إلى وردة عمري وحياتي وبلسم شفائي أمي الحبيبة "وردة"

من جرح الكأس فارغاً ليسقيني قطرة حب دون مقابل ومن أحمل اسمه بكل عزة وافتخار والدي

العزیز "رشيد"

من أفتقده ويرتجش قلبي عند ذكر اسمه وأشتاق إليه من كل قلبي وأشتاق إلى روحه التي

تأدرت حياتي لتترك خلفها فراخ وهيب متمنية له الرحمة والمغفرة أخي الحبيب "بلال"

من ساندوني وكانوا لي عوناً في مسيرة حياتي منذ الطفولة إلى الآن أخوتي "مسعود"،

"جمال"، "شفيقة و زوجها نبيل"

إلى بهجتا عمري ونورا حياتي أريج ومحمد

من كانت صديقة دربي وأختي العزيزة منذ أن حملنا حقائب صغيرة وسرنا الدرب خطوة بخطوة

وما زلنا حتى الآن وزميلتي في هذا البحث "مروة سلاطنية"

ومن أحببتهم وأحبوني ووسعهم قلبي ولم تسعهم هذه الورقة، والذين سأفتقدهم وأتمنى أن

يفتقدوني زملائي طلبة قسم الفلسفة.

## إهداء مروية

وليس أخو علم كمن هو جاهل

تعلم فليس المرء يولد عالما

إلى من أردني أن أصل فوصلت بإذنه، إليك ربي حمدي و شكري ، و على نبيك محمد -صلى الله عليه و سلم-

فاللهم اجعل هذا العمل خالصا لوجهك و نافعا لقارئه

أهدي ثمرة جهدي إلى من قال فيهما الرحمن "و بالوالدين إحسانا"

إلى من علمتني أولى الكلمات و أهدتني شعار الحياة ، إلى من أعطتني الحنان و أوصلتني بتوصياتها

إلى بر الأمان ، إلى من حديثها و كلماتها دواء الهم و الأحزان إلى من صبرت علي و علمتني معنى الصبر إلى التي لو وهبتها عمري ما كفيتها ، إلى تاج رأسي أمي الغالية "فتيحة"

إلى رمز اعتزازي و افتخاري، إلى من علمني معنى التحدي إلى سندي و مرشدي، 'إلى من تمنى لي النجاح دوما، و كان لي دعما في قوتي المادية و المعنوية، إلى من غرس أنفي نخلة و علمني أنه لا تصنع الشهد إلا نحلة ، إلى أعظم والد في الوجود أبي الغالي "مولود"

إلى النبع الصافي و البلسم الشافي إلى سارق قلبي و كل عمري، إلى الذي أحبني و علمني كيف أحب إلى الذي وقف بجانبني ليحقق فرحتي و نجاحي، إلى رمز الوفاء و الإخلاص خطيبي "خالد"

إلى من كانت قدوتي و قاسمتني أحزاني وأفراحي إلى من أحببتي أكثر من نفسها ولو رزقت حياة أخرى لأمضتها بجانبني أختي "سلاف" و الغالية "سكينة"

إلى من علمني معنى التحدي و التضحية من أجل الوصول إلى الأفضل أخي الوحيد ونور قلبي "هاني" و زوجته "تورة" و ابنتاه الغاليتان "دينا و ليانا"

إلى الأخت الكبرى و الأم الثانية إلى نهر الحنان "لامية" وزوجها "وليد" و أولادهم "أمين" "عزلان" و "مؤيد" ألف رحمة و نور على روحه الطاهرة

إلى طيبة القلب "ريمه" وزوجها "بلقاسم" و الصغيرة الجميلة "ميان"

إلى أختي و جميلتي و سندي و ناصحتي و معلمتي في الحياة الغالية "تونو" وزوجها الأخ الذي لم تنجبه أمي إلى طيب القلب "سعيد" و ثمرة حبهما صغيراي و فلذتا كبدي "آدم المعتر بالله" و "تيم المعتمصم بالله"

إلى الأخت التي لم تنجبه أمي إلى من رافقتني في مسيرة دربي الدراسية من الإبتدائي إلى الجامعي إلى خير عون صديقتي و مساعدتي في اتمام هذا البحث "فاطيمة"

إلى روح خالتي الطيبة التي رحلت لتترك فراغا رهيبا و تعلمنا درسا في الحياة و هو أن "وحدة الحب أقوى و أبقي" رحمك الله يا غالية و أدخلك فسيح جناته إلى من وسعهم قلبي و لم تسعهم صحة اهدائي ،

إجعل خير أمورنا خواتمها

مقدمة

## مقدمة

إن ما يميز عصر الحداثة في زمننا هذا هو تزايد سرعة أو وتيرة الحياة الاجتماعية، بسبب التحول السريع الذي شهده العالم المادي والاجتماعي والحضاري، وما عرفه من تحولات كبرى مست مظاهر الحياة الإنسانية، أدت في نهاية المطاف إلى تغييرات جوهرية في نمط وشكل الحياة والمعيشة، فوجد الإنسان نفسه يعيش في واقع تتسارع فيه الآلات وتزداد روح الإنتاجية يوماً بعد يوم، وأصبحت العقلانية التكنولوجية - باعتبار أن هذه الأخيرة مظهراً من مظاهر الحداثة والعصر الراهن - تنزع عن الإنسان سيماته وتجرده من خصائصه ليتحول بدوره إلى مجرد شيء أو إلى آلة يمكن الاستغناء عنها عند الضرورة، الأمر الذي جعل هذا الأخير يعيش في حالة من الاغتراب ، بحيث وضعت العقلانية الأدوات الإنسانية في أزمة إنسانية، وذلك إثر تحول المجتمع إلى مجتمع صناعي غايته الأولى تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح وزيادة أكثر في الإنتاج ، بحيث أن العقلانية التي تحمست لها فلسفة الأنوار ودعت إليها كانت تهدف إلى عقلنة العالم وتحرير الإنسان من الأوهام والخرافات التي استعبدهت وكبلت إرادته وحرمته من حريته ، غير أنها أخذت بعد ذلك طابعاً لاعقلانياً في سياق التطور التاريخي الذي عرفته المجتمعات المتقدمة صناعياً.

ولعل التجاوزات التي فرضتها التقنية على الإنسان المعاصر، ساهمت في تحديد مصيره وتغيير اتجاه حياته والتحكم فيه من كل النواحي وفي جميع المجالات ( الاقتصادية، السياسية، الصناعية، الاجتماعية). فقد كان للإنسان مكانة هامة بين المواضيع التي عالجتها الفلسفات المعاصرة بالدراسة، سواء العربية أم الغربية وخاصة إثر التغييرات التي واكبت حياته لتبرز بعد ذلك واحدة من أهم المدارس الفلسفية الغربية المعاصرة ، ألا وهي "مدرسة فرانكفورت" والتي توجهت بالنقد إلى مجموعة من القضايا الراهنة في المجتمع الغربي المعاصر، كقضية السيطرة الشاملة، والقضاء على قيمة الفردية، والقهر التقني، وصناعة الثقافة. و من بين أهم رواها ماكس هوروكايمر، ثيودور أورانو، هيربرت



## مقدمة

ماركيوز... إلخ، هذا الأخير الذي تأسست نظريته على الرفض المطلق للاستعمال اللاعقلاني للتكنولوجيا، لما شكله هذا الأخير من أزمة داخل الحضارة الغربية المعاصرة عبر الكشف عن أسبابها ومصادرها المسؤولة في ظل مجتمع معاصر، قائم على منطق قمعي أقصى الذات الإنسانية من حساباته، عبر استغلال مفرط للملكات الفردية وسلب وتشويه معانيها بإفراغها من محتواها الأصلي وتسخيرها لخدمة الإيديولوجيا القمعية القائمة على منطق الربح الاقتصادي، ولقد توجه هذا الفيلسوف برؤية نقدية لكلا النظامين الرأسمالي، والاشتراكي مع العلم أن ماركيوز قد قضى معظم حياته فيالولايات المتحدة الأمريكية وهو ما مكنه من معرفة ومعايشة المجتمع المعاصر إثر التطور المتسارع الذي شهده النظام الرأسمالي حيث تعرض له في الصميم، وانطلاقاً من استناد فكره إلى العديد من المفكرين من أمثال فرويد، كانط هيغل ماركس... إلخ تأسست فلسفته والتي عبرت عن نفسها من خلال التعارض مع الواقع المعاش ومن خلال تحويل السلب إلى نفي وتمرد ورفض لي طرح ماركيوز الثورة من أجل تغيير النظام وتحويله من الجذور مقدماً بذلك البديل من أجل ميلاد نظام سياسي يضمن الحرية والتحرر وعليه تحددت الإشكالية المحورية في دراستنا بالقول: ما هو موقف ماركيوز من الأزمة التي فرضتها التقنية على الإنسان المعاصر؟ وكيف انتقد ماركيوز المجتمعات الصناعية المتقدمة؟ وما غايته خلف عامل التغيير؟ وما هو النظام الأمثل عند ماركيوز؟

من أهداف الدراسة:

الداتية:

- الرغبة التعرف على فكر ماركيوز.

- الميل للتعرف على الحضارة الغربية المعاصرة والنظام السائد فيها.

## مقدمة

- الفضول نحو معرفة إنجازات التقنية وأهم ما توصلت إليه في تغيير تفكير الإنسان المعاصر.

### الأسباب الموضوعية:

- تحديد قيمة وأهمية الفلسفة الماركوزية، في معالجة قضايا الإنسان المعاصر.
  - تحديد موقف هربرت ماركيز من المجتمع الصناعي المتقدم.
  - إبراز موقف هربرت ماركيز من التقنية.
  - تبيان مدى نجاح أفكار هربرت ماركيز على أرض الواقع.
- ولقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر أهمها: الإنسان دو البعد الواحد، فلسفة النفي: دراسات في النظرية النقدية، نحو ثورة جديدة وتعتبر هذه المصادر من أهم ما رجعنا إليه لإنجاز هذا البحث الأكاديمي.
- كما اعتمدنا على جملة من الدراسات السابقة نذكر من بينها: جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت نموذج هربرت ماركيز لكمال بومير، فؤاد زكريا: هربرت ماركيز وبعض الرسائل الجامعية.
- ومن أهم الصعوبات التي واجهتنا في مسار هذا البحث الأكاديمي ما يلي: واعتمدنا في ذلك على المنهج التحليلي وسنحاول أن نبين في هذا البحث أن موفق ماركيز من العقلانية التكنولوجية لا يتضمن أي تناقض داخلي في فكره بل أن فكره هو فكر منسجم
- قلة المراجع الخاصة بالفكر الماركوزي
  - عدم توفير كل المصادر المترجمة لهربرت ماركيز في الجزائر
  - ضيق الوقت وذلك باعتبار أن فلسفة ماركيز تحتاج لوقت أطول لفلسفته شاملة ومحاكيه لمجموعة من أكبر الفلاسفة .

## مقدمة

ولقد قسمنا مجمل البحث إلى ثلاث فصول: الفصل الأول: فهو تحت عنوان: مفهوم التقنية والتكنولوجيا وأهم التدخلات التي فرضتها على الإنسان المعاصر وهو عبارة مدخل للتعرف على العقلانية التقنية والتكنولوجيا، وأهم التدخلات التي فرضتها على حياة الإنسان و من بينها :

تدخل التقنية في مجال الطب و ظهور ما يعرف بالبيويطيقا.

تدخل التقنية في مجال التربية و التعليم.

تدخل التقنية في مجال البيئة .

و أخيرا تدخل التقنية في مجال الفيزياء النووية.

أما الفصل الثاني فتمحور حول: أزمة المجتمع الغربي الصناعي الحديث، تضمن: تأسيس مدرسة فرانكفورت وأهم روادها، /أ/موقف هيرت ماركيز من التنوير: التنويرالمفهوم والنشأة، العقل الأداتي، المجتمع القمعي التسلطي؛ب/ التقنية: التكنولوجيا كأداة سيطرة سياسية،اقتصادية، ثقافية؛ تكنولوجيا التدمير

أما في يخص الفصل الثالث فكان حول : الأمل الماركيزي و أفاق التغيير من أجل النهوض بمجتمع أكثر عقلانية ، انطلاقا من الثورة كعامل تغيير مدرجين تحتها كل من الفن و الإستطيقا ، اليوتوبيا و المتخيلة مختتمين بنقد و تقييم الفلاسفة المعاصرين لفكر هيرت ماركيز و نظرتة للمجتمع الصناعي المتقدم.

وقد حاولنا في الأخير الإلمام بفكر ماركيز على الرغم من فلسفته الشاملة والمرتبطة بعضها البعض ، وذلك من أجل الوصول إلى جملة من النتائج و التي تضمنتهاالخاتمة.

## الفصل الأول:

مفهوم التقنية والتكنولوجيا

وأهم تدخلاتها في تحديد

مصير الإنسان

مع تزايد الإنجازات الكبرى التي حققها العلم نتيجة التطبيقات التقنية للنظريات العلمية نشأ توجه إيجابي في القرن 20م يمجّد العلم، ويعطي من شأنه ويعد أمل البشرية في تحقيق حياة مثالية طالما سعى الإنسان إليها منذ زمن طويل، فالتقنية اليوم أصبحت لها دور كبير في تقدم المجتمعات وزيادة سيطرة الإنسان على الطبيعة وثرواتها ورفع قدرته على النهوض في مختلف المجالات الصناعية والزراعية والنقل...إلخ. فالعلم اليوم يقدم جوابا لكل شيء والتقنية أصبحت تمنحنا حولا لجميع المشكلات المطروحة علينا.

هذا التحمس الشديد للعلم ومنجزاته تمثل وتشكل في تيار واسع وأصبح يسمى بالوضععية أو التقنوية أو العلاموية ، وتقوم هذه العلاموية على تصعيد العلم بجعله جوهرًا مكافئًا لإيمان جديد يقدم جوابا لكل شيء، وعلى توقع من العلم الحديث بأن يجعلنا سادة الطبيعة وملاكها.

غير أن التحمس الزائد للعلم ومنجزاته منع المجتمعات من الانتباه إلى السلبيات التي أدت إليها التقنية، إذ انتظم العلم وفق العقل التقني الذي يعيد تنظيم المجتمع وفق غايات تقنية. هذا أمكن القول أن إعجاب الإنسان بالعلم وإيمانه بقدراته على تحقيق سيطرة فعالة ومتزايدة على الطبيعة، منعه من رؤية أن هذا العلم سيؤدي بنا الى سيطرة الإنسان على الإنسان وعدم تمكن هذا الأخير أن يكون مستقلا ذاتيا أو أن يقرر حياته بنفسه، فالتقنية إذا لها سيادة (سيادة على الطبيعة وعلى الإنسان)

فما هو مفهوم التقنية وإلى أين تعود جذورها التاريخية وما هي أهم المجالات التي فرضت عليها التقنية سيطرتها؟.

## مفهوم التقنية TECHNIQUE:

كلمة مشتقة من technikos وهي لفظ ذات أصل يوناني معناها الفن، والصناعة؛ و techné بالمعنى اللفظي تعني عمل يدوي، أو المهارة في صناعة شيء ما.<sup>1</sup> ويعرفها لالاند من خلال قوله:

تقني: ( فني، علمي، صناعي)

وهي كل ما يتعلق بالطرق الفنية العلمية أو الصناعية أطلق اسم تربية تقنية على التربية التي تسمح لكل فرد بأن يقوم بمهمته على أفضل وجه ممكن؛ وتعود أهمية العلوم التقنية وتتميتها إلى شتى خصائص حالة الأمم المتحضرة ولا تعود إطلاقاً إلى الأهمية والمرتبة الفلسفية للعلوم التطويرية التي ينبغي إلحاقها به،<sup>2</sup>

ويرى منتريه أنه يلزم التفريق إجمالاً بين ثلاث أصناف من التقنيات:

(1) التقنيات بالمعنى الحقيقي (صناعة)

(1) التقنيات البشرية الماعون الأخلاقي الاقتصادي السياسي

(2) تقنيات الفنون الجميلة ومن ضمنها الأدب

وتتسم التقنيات كلها بأنها جماعية وتقديمية و أن كل علم يتحدر من تقنية سابقة.<sup>3</sup>

ويعرفها جميل صليبا بقوله:

<sup>1</sup>أبراهيم أحمد: اشكالية الوجود والتقنية عند مارتن هيدجر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، 2006، ص 25.

<sup>2</sup>أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، المجلد الأول، ط2، بيروت، 2001، ص 1427.

<sup>3</sup>المرجع نفسه: ص 1428.

التكنولوجيا هي علم التقنيات، وهو يدرس الطرق التقنية من جهة ما هي مشتتة على مبادئ عامة، أو من جهة ما هي متناسقة مع تطور الحضارة وأهم المسائل التي يبحث فيها هذا العلم ثلاث:

- (1) وصف الفنون الموجودة في زمان معين وفي مجتمع معين وصفا تحليليا دقيقا
- (2) البحث في شروط كل مجموعة من القواعد الفنية وقوانينها لمعرفة أسباب إنتاجيتها العلمية

- (3) دراسة تطور الطرق التقنية في أحد المجتمعات الإنسانية أو في مجتمع إنساني عام<sup>1</sup>

كما ويعرفها ابراهيم مدكور في المعجم الفلسفي بأنها:

جملة المبادئ أو الوسائل التي تعين على إنجاز شيء أو تحقيق غاية، وتقوم اليوم على أسس علمية دقيقة، وتختلف عن العلم من حيث أن غايتها العمل والتطبيق في حين أن العالم يرمي إلى مجرد الفهم الحالي من الفرض العلمي، والكلمة الاجنبية من أصل يوناني وهو **techné** ومعناها الفن والصناعة.<sup>2</sup>

أما ديدي جوليا: في معجمها الفلسفي فتعرفها بأنها كل صناعة لأشياء وقد تكون حرفية (صناعة يدوية)، أو صناعة (صناعة بألة أو بعدة آلات).<sup>3</sup>

### اصطلاحا:

إذا بحثنا عن اللفظة من حيث التعريف أو الجانب الاصطلاحي وجدناها تدل على

<sup>1</sup> جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986، ص 333.

<sup>2</sup> ابراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 53.

<sup>3</sup> ابراهيم أحمد: مرجع سابق، ص 26.

مجموعة مناهج فن أو صناعة.<sup>1</sup> و تعتبر فن وعلم يشير إلى كل الطرق التي يستخدمها الناس في تنمية حياتهم ولإشباع رغباتهم وتطوير اكتشافاتهم في المحيط الخارجي، إذ ساهم هذا العلم في نقل الإنسان من حياة البداوة إلى حياة الحضارة والحدثة. فقد كانت نتيجة لازمة من أجل الحصول على المأكل والمشرب والمأوى، وكذلك للتقليل من الضغوطات الجسدية بالدرجة الأولى والنفسية بالدرجة الثانية التي تواجه الإنسانية أثناء أوقات العمل؛ وبصفة أخرى فإن التقنية: "تمثل أبعاد مسيرة التطور المعرفي والحضاري الذي عرفته المجتمعات المتقدمة في العالم الغربي، والقائمة على العقلانية والحرية والتقدم، خاصة منذ القرن الثامن عشر ميلادي."<sup>2</sup> أي عصر الأنوار وهو بمثابة موجة من الأفكار التي نقلت الإنسان من المعرفة الأسطورية إلى المعرفة العلمية كما قال زكي نجيب محمود في كتابه المنطق الوضعي: "إذا كانت النهضة الأوروبية قد جاءت بمثابة الثورة على النموذج الأرسطي في التفكير فصميم الثورة هو الدعوة إلى الخروج إلى الطبيعة لملاحظتها بعد أن أغمضت العصور الوسطى عيونها عن الطبيعة."<sup>3</sup> وإن كل تقدم وتطور يحمل في طياته كل ما هو إيجابي وسلبى كما هو الأمر بالنسبة للتقنية؛ فهذه الأخيرة قد شكلت للإنسانية مشروع ذو بعدين يمكن وصفهما بالبعد الإيجابي والآخر بالسلبى، فهناك من المجتمعات من تقبلتها بالشكل الإيجابي وجعلت منها مصدر للتطور والرقى والازدهار في جميع المجالات، وهناك من وقف بشكل مضاد لها واعتبروا أنها وسيلة للسيطرة والهيمنة

والقضاء على ما يسمى باليد العاملة: "أنها علم يخدم الطبقة الرأسمالية بالدرجة الأولى

لإضعاف قوة الطبقة العاملة التي تعمل من أجل الاشتراكية وأصبح الإنسان أسيراً لها."<sup>4</sup>

<sup>1</sup> ابراهيم أحمد: مرجع سابق : ص 26.

<sup>2</sup> كمال بومنيير: جدل العقلانية في الفلسفة النقدية لمدرسة فرانكفورت، نموذج هيربرت ماركيز، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، 2010، ص 19.

<sup>3</sup> المرجع نفسه: ص 26.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، ص 82.



ومنه فالتقنية ليست خيراً أو شراً .

ومن جهة أخرى يمكن اعتبار أن التقنية هي نتيجة انقلاب الإنسان على الطبيعة ، من خلال التغيرات والتعديلات التي أضافها عليها، وقد شملت جميع مجالات الحياة البشرية مثل استخدامنا للأجهزة الكهربائية في المنزل، وأماكن العمل والتعليم، الأمر الذي جعل الإنسان خاضع تماماً لها ولنتائجها. كما يقول هيدجر: "إن ما ندعوه تقنية الأزمنة الجديدة ليس فقط أداة أو وسيلة يمكن أن يكون الإنسان اليوم سيدها أو ذاتها الفاعلة، فقبل ذلك وفيما وراء هذه الوضعيات الممكنة نرى أن هذه التقنية هي نمط تأويل العالم تم إقراره من قبل نمط وسائل المواصلات، والتزويد بالمواد الغذائية وصناعة المسليات بل يحدد كل موقف للإنسان في إمكانيته الخاصة أي أنه نمط يسم بما يسمه كل قدراته على التجهيز، وهذا ما يجعل التقنية غير قابلة للخضوع والتحكم فيها إلا عندما نخضع لها بدون شرط وبدون تحفظ."<sup>1</sup>

وبالعودة إلى أركيولوجيا المصطلح نجد أن مفهوم التقنية في القديم تعني: مجموعة من المعطيات التجريبية جمعت وركبت لتحقيق مجموعة من الغايات، فهي في جوهرها تشير إلى مجموعة أساليب لمهنة أو فن ما، تحولت إلى قوانين مضبوطة ومدونة والتي تسمح لنا بتحصيل نتائج تخمينية نافعة.<sup>2</sup> وتبرز معظم تعريفات المعرفة التقنية ارتباطها بالصنع والبراعة وليس بالمعرفة فحسب، فالتقنية تربط في غالب الأحيان بكلمة **erga** أي العمل وهي كلمة واسعة الدلالات تترجم بشكل فضفاض إلى الأفعال **acts** والأعمال **works** ونتائج **results** وفي بعض الأحيان تعد من المصطلحات الملازمة للكلام **logoi** المجرد، في مقابل الحقائق، وعند ارسطو تعد التقنية مكافئة للعادة المنتجة **exispoiétique** وهي منتجة من حيث أنها تأتي إلى الوجود بشيء غير واجب الوجود أي ليس ضروري، ولا

<sup>1</sup> كمال بومنير: جدل العقلانية، مرجع سابق: ص 59.

<sup>2</sup> إبراهيم أحمد: مرجع سابق، ص 38.

يوجد في الطبيعة أي شيء يعتمد وجوده على الصانع (التقني). وذلك يتضمن إنتاج غير الملموس كالصحة للطبيب، والإقناع للخطيب والبرهان الرياضي، والإنتاج عبارة عن عملية وتحقيق للإمكان ولذلك فإن التقنية كثيراً ما توصف أنها دينامية (قوة أو إمكانية) وهذا يعطي لأرسطو المجال للموازاة مع الأخلاق لأننا في رأي أرسطو نكتسب الفضائل ببلوغها تماماً، كما يصبح الواحد منا بناء بالبناء، وبذلك يكتسب الطبيب مهنته من خلال الخبرة وليس من خلال الكتب الدراسية فحسب.<sup>1</sup> كما ورد في محاوره جورجياس لأفلاطون حيث يفصل سقراط التقنية الحقيقية في مقابل الزائفة عن العمل والممارسة وحتى الخبرة ويؤكد بالأحرى على أهمية العقل الذي ينظر إليه أساساً بوصفه معرفة الأسباب المتعلقة بمجال معين من مجالات النشاط ، كذلك امتدح أفلاطون التقنيات التي تقوم على التفكير الرياضي، ثم يعود في الجمهورية للتمييز بين تقنية المستخدم وتقنية الصانع ، وتقنية المقلد الأدنى بين الثلاثة والصانع بدوره يوضع في مرتبة أدنى من المستخدم، ذلك لأن الأول لم يوهب الرأي الصحيح في حين يمتلك الآخر معرفة بالشيء كالفرق بين عازف الناي وصانعه ، ومن هنا فإن أرسطو وأفلاطون قد جعلوا الأولوية للمستخدم أكثر من الصانع.<sup>2</sup>

ويعود تاريخ التقنية إلى حركة التطور في البيئة التي كان يعيش فيها الإنسان في القديم، ولقد ظهرت أهم الاختراعات التقنية في العصور القديمة في منطقة الشرق الأدنى والجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، حيث لجأ الإنسان إلى استغلال كل ما يحيط به من أجل استمرار حياته فقد كان بحاجة إلى المأكل والمشرب، وهذا ما دفع به إلى صناعة الأدوات التي تضمن له استمراره وبدأ بالحجارة، فصنع منها النصال والسكاكين والمحافر وكمثال على هذا فقد كان الإنسان يعيش في الجزر وقرب الأنهار وكان بحاجة لوسيلة تنقله من ضفة إلى ضفة مقابلة لها، ومن هنا نتج عنه صناعة الزورق، ثم طوره إلى قارب إلى

<sup>1</sup> سيرافينا كومو: التقنية والثقافة في العصور القديمة، ترجمة: مصطفى قاسم، مكتبة مؤمن قريش، ط1، أبوظبي،

2012، ص 26.

<sup>2</sup> المرجع نفسه: ص، ص 27، 28.

أن صنعت السفن؛ ومن هنا تطورت التقنيات البحرية ويعود تاريخها إلى أكثر من 10000 سنة، أين ظهر أسلوب جديد في الحياة وخطى فيها الجنس البشري خطوة أخرى نحو تطور المدينة، حيث بدأ باستخلاص النحاس وصناعة السبائك النحاسية، إضافة إلى ابتكارات جديدة صنع الآلات وتشبيد المصانع، ومن هنا بدأت التقنية طريقها في السيطرة على الفرد وتشكيل البعد الواحد في ذاته وعقلانيته.<sup>1</sup>

وبالمفهوم الحديث: التقنية هي تطبيق معطيات علمية معينة من أجل الوصول إلى نتائج محددة، كما تشير إلى مجموعة من السلوكيات العلمية التي تستعمل المعارف العلمية لكي تحرر نتائج معينة، بمعنى أن التقنية هي مجموعة من الأساليب التي نستطيع من خلالها الوصول إلى المعرفة العلمية والقيام بالعمليات التطبيقية، حيث نجد كإحدى يربط بين التقنية بمفهوم النظرية، بحيث أنها مجموعة أعمال نظرية ثم تطبيقية يترتب عنها أفعال وأعمال ونتائج لاحقة بها.<sup>2</sup>

ومن هنا يمكن القول أن التقنية هي عبارة عن:

- ✓ علم مستقل بذاته يهدف إلى تغيير الحياة الإنسانية
- ✓ علم تطبيقي يجسد المعرفة على الواقع أي تحويل الفكرة إلى إبداع واقعي
- ✓ علم يعمل على تطوير الحضارات الإنسانية من الحياة البدائية إلى الحياة الحضارية
- ✓ علم يستهدف الطبيعة والإنسان
- ✓ علم قابل للتطوير والتجديد وغير قابل للتراجع
- ✓ علم يهدف لإيجاد حل لمعاناة البشرية (الأمراض المزمنة).

<sup>1</sup> هنري هودجر: التقنية في العالم القديم، ترجمة: زنده قاقيش، الدار العربية للتوزيع والنشر، عمان، 1988، ص-ص 17-9.

<sup>2</sup> إبراهيم أحمد: مرجع سابق، ص 39.

✓ علم تتحكم فيه طبقة معينة أي الطبقة الرأسمالية البرجوازية

✓ علم ذو بعدين وقابل للنقد بالسلب أو الإيجاب، كونه يعمل من جهة على ترقية

الإنسانية ، ومن جهة أخرى فهو يعمل على تدميرها من خلال استخدامها في مجال الكيمياء والفيزياء كالقنابل والأسلحة النووية.

## مفهوم التكنولوجيا

**لغة:** كلمة أعجمية تعني العلم التطبيقي الذي يهتم بدراسة الصناعات والفنون وكل ما يتعلق بها من مواد ووسائل مستعملة.

ويعرفها لالاند في موسوعته الفلسفية: "بأنها دراسة الطرق التقنية من حيث علاقتها بنمو الحضارة." وتشمل التكنولوجيا على ثلاث أنواع من المسائل الناجمة عن ثلاث وجهات نظر يمكن من خلالها النظر في التقنيات:

- هناك مجال للقيام بالوصف التحليلي للفنون والصناعات، كما توجد في لحظة معينة في مجتمع معين.
- ثمة مجال للبحث عن الظروف وعن القوانين التي بموجبها يجري تطبيق كل مجموعة من القواعد وعن الأسباب التي تعود إليها فعاليتها العملية.
- هناك مجال صيرورة هذه الأعضاء أو الأجهزة عينها سواء دارت حول مولد وذروة وانحلال كل منها في مجتمع معين، أو دارت حول تطور سلسلة التقنيات في الإنسانية جمعاء؛ إن مجموع هذه الدراسات الثلاث يشكل التقانة العامة<sup>1</sup>

<sup>1</sup> اندريه لالاند: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 1429.

كما يعرفها ابراهيم مذكور في المعجم الفلسفي بأنها: "تسق من معارف تقنية مستمدة من علوم مختلفة، وتهدف كلها الى غاية واحدة وهي تطور الانتاج وتنوع وسائله وتحديد دور الإنسان فيه، وهي بهذا سمة كبيرة من سمات العصر الحالي".<sup>1</sup>

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الدور الفعال الذي تلعبه التكنولوجيا في حياة الإنسان وعن إسهاماتها في الرفع من مستواه المعيشي في شتى المجالات.

### اصطلاحاً:

وبالرجوع إلى التعريف الاصطلاحي فهي: تعتبر مفهوم من المفاهيم التي ناقشها الكثير من الباحثين والمفكرين واختلفوا في نظرهم لها، بسبب اختلاف تخصصهم وتطور التكنولوجيا نفسها، ولكن من الأمور المتفق عليها أن ماهية التكنولوجيا قديمة قدم المخترعات البشرية نفسها، حيث تعتبر وسيلة من الوسائل التي اكتشفها الإنسان عند تطويعه البدائي للطبيعة أي عند محاولاته الأولى لإخضاع الطبيعة لسيطرته، وبعدها أصبحت أداة يستخدمها لخدمته ومساعدته لقضاء حاجياته المتنامية ، أي من أجل مساعدته على متطلبات الحياة ، ثم تطور استعمالها وعم إلى أن أصبحت مهمة جدا في الحياة العامة والخاصة ، مما جعل البعض من المفكرين يعتقدون بأنها المسؤولة عنمعظم التغيرات التي تحدث داخل المجتمع المعاصر، هذا من حيث مضمونها. أما من حيث اللفظ ذاته : "فقد استعمل حديثا حيث ورد في بعض المصادر إن أول ظهور لمصطلح التكنولوجيا كان في ألمانيا عام 1770، وهو مركب من مقطعين **techno** وتعني في اللغة اليونانية "الفن" أو صناعة يدوية ، **logie** وتعني علم أو نظرية ، وينتج عن تركيب المقطعين معنى علم صناعة المعرفة النظامية في فنون الصناعة، أو العلم التطبيقي".<sup>2</sup>

<sup>1</sup> ابراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 53.

<sup>2</sup> نورالدين زمام، صباح سليمان: تطور مفهوم التكنولوجيا واستخداماته في العملية التعليمية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 11، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جوان 2013، ص 165.

ولقد رجع الكثيرون في تعريف التكنولوجيا من خلال الترجمة الحرفية للكلمة والرجوع إلى أصولها اللاتينية، وهكذا فإن معاجم اللغة تقول: "إن كلمة تكنيك تعني أسلوب أداء المهنة أو الصناعة وتكنولوجيا تعني العلم الذي يدرس تلك الصناعات." وهكذا فإن التكنولوجيا هي ذلك الجهد المنظم الذي يهدف لاستخدام نتائج البحث العلمي في تطوير أساليب أداء العمليات الإنتاجية، إلا أن مفهوم التكنولوجيا أصبح له مفهوم حديث أكثر شمولاً، بمعنى أنها مجموع الوسائل التي يستخدمها الإنسان لبسط سلطته على البيئة المحيطة به لتطويع ما فيها من مواد وطاقات لخدمته وإشباع احتياجاته، المتمثلة في الغذاء والتنقل ومجمع السبل التي توفر له حياة متحضرة آمنة.<sup>1</sup>

وبالرجوع إلى تاريخ التكنولوجيا فهو أقدم بكثير من تاريخ العلم أو الفلسفة، ويعود تاريخ التكنولوجيا إلى عصور ساحقة فيما قبل التاريخ، ربما يعود إلى اثنين أو ثلاثة ملايين سنة من ماضي البشرية، إن صور اليوم عن هذا الماضي صور قد ساهم فيها أجدادنا بمجموعة من التكنولوجيات أكثر تعقيداً أو تنوعاً واختلافاً، وفي كل حال فقد استبدلت الصور البسيطة لمجتمعات الجمع والصيد وحلت محلها نماذج كثيرة لمجتمعات تعرف باختلاف التقنية وتنوعها من أجل ضمان البقاء حياً.<sup>2</sup> أي أن الإنسان سعى ومنذ عصور خلت، من أجل إيجاد حلول تساعد على الدفع بحياته نحو التقدم، و ذلك ابتداءً من تلك العصور الذي كانت فيه الزراعة و الصناعة، هي أوج مراحل التقدم الإنساني.

### فلسفة التكنولوجيا:

تتجه فلسفة "ال" نحو موضوع ما للبحث، أو نحو ظاهرة ما، وهكذا الأمر فيما يتعلق بفلسفة التكنولوجيا، ومن ثم فلسفة التكنولوجيا هي واحدة من التخصصات الفرعية الأكثر

<sup>1</sup> محمد السيد عبد السلام: التكنولوجيا الحديثة، عالم المعرفة، الكويت، 1982، ص 54.

<sup>2</sup> دون اد: مدخل إلى الفلسفة التكنولوجية، ترجمة: فريال حسن خليفة، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، 2009، ص 101.

حادثة في الفلسفة، ويمكن وضع أصل فلسفة التكنولوجيا في النصف الثاني من القرن 19، ولكن هذا لا يعني أن الفلاسفة قبل منتصف القرن 19 لم يعالجوا المسائل التي شأنها الانتماء اليوم في مجال فلسفة التكنولوجيا، ويمكن القول أن: "هناك سبب واحد لظهور فلسفة التكنولوجيا في القرن 20 وهو التطور السريع للتكنولوجيا في ذلك الوقت وفقا للفيلسوف الألماني هيدجر". أما جون ديوي، فقد تناول بحث في التكنولوجيا من خلال نظرية المعرفة ذات أساس براغماتي ترفض الفصل بين الذات العارفة عن الموضوع المعروف، كما أنه أحال التكنولوجيا إلى مجرد نشاط أداتي لخدمة غايات أخرى حيوية أو اجتماعية.<sup>1</sup>

فالإنسان ومنذ القدم كان عندما يعمل على تحقيق إنجاز معين بهدف بسط سلطته على البيئة المحيطة به ، فإنه يستخدم مجموعة من المعارف والمهارات، أي أسسًا تكنولوجية ويستعين بمجموعة أدوات تكنولوجية ومن ثم تدخل جميعها في إطار واحد، فيمكننا القول حينئذ بأنه يستخدم التكنولوجيا؛ والتكنولوجيا بمفهومها الشامل ليست أمرا جديدا، ولو أن الاحساس بها وإدراك أهميتها وخطورتها هو الجديد، فالإنسان في صراعه مع البيئة ومنذ عهود بعيدة موغلة في القدم، استخدم معارف وعادات توارثها عن آبائه أو اكتسبها من ممارسته الخاصة وكثيرا ما ورثها لأبنائه والأجيال التالية ، واستعمل أدوات و إن كانت أغلبها أدوات بسيطة وبدائية من وجهة نظرنا، فقد كانت ذات قيمة بالغة بالنسبة له آنذاك، وإذا ذكرت التكنولوجيا فكثيرا ما يتبادر إلى الذهن المنتجات الصناعية الشائعة اللصيقة بالاستخدام العادي وحديثة العهد: كالقطار، السيارة، الطائرة، المذياع ، التلفزيون، ولكن هذه في الحقيقة إنجازات تكنولوجية لتحقيق إنجازات أخرى قد نحس بها وقد لا نحس..<sup>2</sup>

<sup>1</sup> دون إد: مرجع سابق، ص 108.

<sup>2</sup> محمد السيد عبد السلام: مرجع سابق، ص54.

إن التكنولوجيا ليست معنية بامتلاك ناحية التقنيات التي هي موضوع دراستنا ، إذ يستلزم على الأرجح قدرا هائلا من المعارف المتخصصة التي لا يتسنى اكتسابها إلا بعد تلمذة صناعية طويلة الأمد، وإنما تعالج التكنولوجيا بدلا من هذه: متى، أين؟ ولماذا هذه التقنيات؟ بمعنى أنها تهدف الى تفسيرها داخل سياق اجتماعي، وبيان كيف ظهرت وازدهرت والطريقة التي تتربط بها في علاقات متداخلة فيما بينها وأسلوب تشعبها ولانتشارها، وأسباب تدهورها وانحسارها، ومن ثم فإن التكنولوجيا معنية بفهم التقنيات داخل البيئة التي شهدت نموها اجتماعيا، يترتب على هذا أن التكنولوجيا دراسة إنسانية ودراسة اجتماعية وذلك لأنها تعالج أشكالاً وصوراً مميزة للسلوك البشري في المجتمع، وحيث أنها تتناول التحولات التي تطرأ على التقنيات على مدار الزمان.<sup>1</sup> ومع أن جميع التقنيات البشرية هي الموضوع الأصيل لدراسة التكنولوجيا، إلا أن النهج الدراسي الشائع ركز الانتباه على بعض التقنيات دون الأخرى ويات مألوا على وجه الخصوص قصر نطاق التكنولوجيا على هذه التقنيات الإنتاجية والصناعية وتقنيات التشييد والنقل والاتصالات التي هي مجال استخدام هذه الطاقة، ولقد ارتبطت التكنولوجيا بالعديد من الفروع كالفلسفة ، والاركيولوجيا والطب وغيرها، دون أن ننسى العلم فإنها ذات صلة وثيقة به، والمألوف عادة أننا في حياتنا اليومية نستخدم عبارة العلم والتكنولوجيا وكأنهما اسمان مترادفان عمليا وهذا تصور خاطئ، نظراً لأن كلا من الاسمين يمثل شيئاً متميزاً عن الآخر و مختلفاً عنه تماماً. إذ بينما تعنى التكنولوجيا بصناعة وعمل الأشياء، نجد أن العلم معنيا بالفهم النسقي والمنهجي الذي يحققه الإنسان، والملاحظ أن البشر قد يشرعون في صنع وعمل أشياء وهم لا يعرفون ولزمن طويل سوى تفسيرات بدائية وجزئية عن الخامات المتاحة لهم ، ولهذا نقول أن التكنولوجيا أقدم من العلم<sup>2</sup>

<sup>1</sup> محمد السيد عبد السلام: مرجع سابق، ص 55.

<sup>2</sup> ار إبه بوكانان: الالة قوة وسلطة، التكنولوجيا والانسان منذ 179 حتى الوقت الحاضر، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص 14.



لقد كان للتكنولوجيا الدور الكبير في تغيير حياة الناس، بحيث وتدخلها في شتى مجالات الحياة الزراعية ، الصناعية ، التعليمية ، أحدث تغيير شاملا في حياة البشرية بأكملها، ويمكن أن نحدد في صيغة محكمة طبيعة المعضلة التكنولوجية، لقد أصبح العالم الحديث معتمدا اعتمادا تاما على التكنولوجيا من نواح كثيرة أهمها أنها أضحت وسيلة لتوليد الثروة حفاظا على مستويات المعيشة ، والمعضلة هي أن نتجنب التدمير التكنولوجي مع الحفاظ على منافع الاعتماد على التكنولوجيا ،وكذا مظاهر أخطرها في العالم الحديث، إذ أن إمكان زرع أدوات الحرب التكنولوجية للتدمير الذاتي الشامل بات يمثل سيفا مسلطا فوق رقاب النوع البشري، منذ إلقاء أول قنبلتين ذريتين انشطاريتين على هيروشيما وناكازاكي في أغسطس 1945<sup>1</sup> وأن تكديس هذا النوع من القنابل ووسائل أخرى أشد تدميراً هي القنابل الهيدروجينية من شأنه أن يجعل فناء النوع البشري احتمالا واردا،بالإضافة إلى المخزون الرهيب من أسلحة كيماوية وبيولوجية مثل الغازات السامة والبكتيريا القاتلة وما يسمى بالأسلحة التقليدية، وهناك أيضا الخطر المائل نتيجة انتشار إشعاعات من محطات توليد الكهرباء التي تعمل بالقوى النووية.<sup>2</sup>

انطلاقا من هنا فإن التكنولوجيا هي طائفة من الأدوات بين أيدي البشر يحسنون ويسوئون استخدامها، ونظرا لأن هذه الأدوات أصبحت منظومات شديدة التعقيد ، أصبحت السيطرة عليها أكثر صعوبة كما أصبح إمكان إساءة استعمالها أشد خطرا مما كانت عليه الحال بالنسبة للأدوات البسيطة ، والأمر الآن أصبح موكلا للبشر أن تكون لهم السيطرة على الأدوات التي ملك أيديهم، وليس على البشر إلا أن يعرفوا وجهتهم وهدفهم حتى يتسنى لهم السيطرة بكفاءة وفعالية،إن رؤية فرانسيس بيكون عن سيطرة الإنسان على الطبيعة تحقق

<sup>1</sup> أر إيه بوكنان: مرجع سابق، ص 15.

<sup>2</sup>المرجع نفسه: ص 16.

قدرا كبير منها بالوسائل التكنولوجية، ولكن البشر بحاجة الان إلى التفكير فيما يريدون انجازه بها.<sup>1</sup>

### أهم المجالات التي تدخلت فيها التقنية

دخلت البشرية حقبة جديدة فريدة من نوعها، وذلك بسبب الطفرات العلمية الكبرى في مجال العلوم الفيزيائية والبيولوجيا المعاصرة والمعلوماتية والاتصال، بدأت تشكل حقبة فلسفية جديدة تنتشطها جماعات البحث في ميادين حياتية مختلفة وتهتم بمواضيع الفلسفة السياسية وفلسفة البيئة وفلسفة التكنولوجيا وفلسفة حقوق الإنسان ، وفلسفة الطب والبيولوجيا... مما يدل على أنه في هذه الحقبة الفلسفية الجديدة يجري العمل على تجاوز الفكر الفلسفي التقليدي، ففي هذه الحقبة تتجه فعالية الفكر الفلسفي إلى الاهتمام بالقضايا الناتجة عن التطور العلمي والتكنولوجي إلى اقتراح تصورات وأفكار تتسجم مع الوضعيات الجديدة خاصة في بعدها الأخلاقي والسياسي والثقافي والاجتماعي.<sup>2</sup>

وتضيف **جاكلين روس** أن عامل التقنيات الجديدة، وهي تقنيات مثقلة بالأخطار للإنسان، وبقدر ما تزيد من قدراته بشكل كبير فهي تثير مخاوفه، لأنه أصبح هو فاعل تقنياته وموضوعها معا، أي أن هذه التقنيات بعدما ساهمت في تحرير الإنسان فهي تسير في طريق تقوده إلى التحرر من الإنسان ذاته، بما تكتسبه يوما بعد يوم من سلطات قد نقلت من تحكم الإنسان. إن التطور الذي شهدته ميادين الطب وعلوم الحياة والهندسة الوراثية؛ بما تحققه من طفرات كانت أقرب إلى الخيال منذ وقت قصير، وكل ذلك ناشئ عن التدخل التقني في الجسم البشري والحرص على تطبيق، بمعنى أن الإشكالية المطروحة اليوم هي إيجاد تسوية للتعارض القائم بين رغبة الإنسان المعاصر في تطوير معارفه

<sup>1</sup> أر إيه بوكنان مرجع سابق: ص - ص 249-256.

<sup>2</sup> مصطفى كحل، وآخرون: الاخلاقيات التطبيقية والرهانات المعاصرة للفكر الفلسفي، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 10.

العلمية للتحكم في الواقع من جهة ،وبين حرصه الشديد للحفاظ على حقوقه وكرامته من جهة أخرى،فما تحقق خلال العقدين الماضيين من إنجازات عظيمة يدق ناقوس الخطر، فلأول مرة في تاريخ البشرية أصبح ممكنا الحديث عن: التحكم في عملية الإخصاب والإنجاب وتيسير الاستفادة من خدمات البنوك ( البويضات والحيوانات المنوية ) حيث تم فك الارتباط بين الجنس والحمل والأمومة.<sup>1</sup>

فالإنسانية يحق لها أن تعبر عن قلقها من خطر إمكانية إساءة استعمال المعرفة العلمية الجديدة بعيدا عن القيم الأخلاقية الإنسانية، وعليه فإن خطاب أخلاقيات الطب والبيولوجيا ليس خطابا معارضا للتكنولوجيا والتقدم العلمي ،وإنما هو خطاب يرسم الخطوط الحمراء التي يجب عدم تجاوزها، لما يشكله ذلك التجاوز من أخطار على الإنسان والحياة.<sup>2</sup> ولعل التدخل التقني لم يقتصر على الجانب الطبي فحسب، بل وفي شتى المجالات أصبحت التقنية عاملا أساسيا في التعامل، ومن بينها الجانب التعليمي، مما أدى إلى ظهور ما يعرف بالتعليم الإلكتروني وفي الجانب الفيزيائي ،الأمر الذي مهد لظهور الفيزياء النووية وغيرها من المجالات دون أن ننسى علم البيئة وما تمخض عنه نتيجة التدخل اليدوي في الطبيعة، فهل ساهمت التقنية في تحقيق التطور المرجو منها تحقيقه؟ أو أنها شكلت عقبة في وجه الإنسان وإعاقة تحركه؟.

<sup>1</sup> مصطفى كيجل، وآخرون: مرجع سابق، ص 11.

<sup>2</sup>المرجع نفسه: ص ،ص 22، 23.

## البيوايطيقا:

لقد عبر التحول المعاصر في التقنية عن تحول في النظرة إلى الجسم الذي كان ينظر إليه على أنه موجود مادي له بداية ونهاية يتوسطها ضعف ووهن ، إلى القدرة على التحكم فيه وبتحديده وتعديل إمكانياته، ذلك أن التقنيات الطبية الجديدة عدلت كل الحدود التي كان يحيا فيها الجسم الإنساني، فزرع الأعضاء والتاسخ مثلا كرس عقيدة جديدة يمكن تسميها بعقيدة تتاسخ الأجسام ، لذلك تظهر لنا البيوايطيقا كتفكير أخلاقي جديد في هذه الموضوعات وغيرها، ويعد ضبط دلالة مصطلح البيوايطيقا أمراً ضروريا لفهم طبيعة المسائل والإشكاليات التي تطرحها؛<sup>1</sup> ومن ثم نستطيع القول: "إن البيوطيقا ظاهرة منحدره من ثورتين، اجتماعية وبيوتكنولوجية". "إن تطبيق تقنيات متطورة في ميدان الطب والبيولوجيا، نظر إليه من جهة على أنه تقدم غير مسبوق في ميدان دراسة الكائن الحي والجسم الإنساني خصوصا، لكن نظر إليه من جهة على أنه تدخل في الخصوصية الإنسانية، وهذا ما ترتب عنه ظهور مشكلات أخلاقية جد معقدة، حيث أدت هذه التطورات الحاصلة إلى ظهور مبحث فلسفي جديد يسمى بالبيوايطيقا فما الذي يعنيه هذا المصطلح؟<sup>2</sup>

ظهر هذا المصطلح سنة 1970، في مقال للمتخصص الأمريكي في أمراض السرطان فان راسلاير بوتر، وذلك في مقال له بعنوان **BIOETHICS THE SCIENCES OF SURVIVAL** "البيوطيقا علم البقاء على قيد الحياة". إن الذي لفت انتباه هذا العالم الأمريكي وغيره في ذلك الوقت هو التفاوت الواضح بين التقدم الحاصل في ميدان التقنيات الطبية والفكر الأخلاقي ، الذي من المفروض أن يواكب أبعاد هذه التقنيات: "إن موضوع هذا المبحث الجديد هو القضايا الأخلاقية التي أفرزها التقدم الحاصل في ميادين الطب

<sup>1</sup>حسن مصدق، علي المحمداوي، وآخرون: البيوايطيقا والمهمة الفلسفية، الرابطة العربية الاكاديمية للفلسفة، دار الأمان، بيروت، 2014، ص 208.

<sup>2</sup>المرجع نفسه: ص 206.

والبيولوجيا وما يرتبط بها من قضايا أخرى قانونية وأخرى دينية وفلسفية واقتصادية وبيئية. " بمعنى أنه مبحث جاء لضبط تلك الممارسات اللاأخلاقية في ميدان البيولوجيا، بما في ذلك الإنسان باعتباره كائن مقدس ، أما غايته فهي اقتراح المبادئ الأخلاقية التي يجب أن تنظم ممارسة الأطباء والعاملين في ميدان الصحة، والأبحاث العلمية في الطب والبيولوجيا، إلا أن البيوايطيقا لا تسعى إلى التنظير إلى ما ينبغي أن تكون عليه الدراسة العلمية للجسم والممارسة التقنية المترتبة عنها فقط ، وإنما تناقش النتائج السلبية المترتبة عن هذه التحولات خصوصا على مفهوم الإنسان ومكانته وكرامته، والمهم أن البيوايطيقا تعبر عن رهن الفكر الفلسفي.<sup>1</sup>

كما يمكن تسميتها بالأخلاق الجديدة، وإذا أردنا حصر أهم الموضوعات التي يدرسها هذا المبحث قلنا:

- التجريب على الإنسان وخصوصا ظاهرة الاستتساخ.
- تغيير جنس الإنسان من الذكر إلى الأنثى أو العكس.
- الإنجاب والمسائل الفرعية المرتبطة به كمشروعية الإجهاض أو بيع السائل المنوي وإيجار الأرحام.
- زرع الأعضاء مع خلفية الاتجار بها، وغيرها من المسائل الأخرى.<sup>2</sup>

وكلمة البيوطيقا لها عدت ترجمات ومعاني، من بينها الأخلاق الحياتية، والواقع أن كلمة اخلاق حياتية تصدر عن الأخلاق النظرية وعن كلمة BIOS، حياة باللغة الإغريقية؛ لذلك فإنها تدل على تفكير في القيم الخاضعة للحياة أو تدل على ما وراء أخلاق تعني بالمراهنات

<sup>1</sup>حسن مصدق، علي المهداوي، وآخرون: مرجع سابق، ص 207.

<sup>2</sup>جاكولين روس: الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، لبنان، 2001، ص، ص 110،

وبعقابيل علم الحياة والطب، فهي إذا كلمة مبهمة ومثيرة للفضول، فهل الإنسان بوصفه فاعلا وشخصا أم الإنسان بوصفه حياً، هو الذي يشكل موضوع الأخلاق الحياتية؟ إذ ذاك يدل على الأخلاق الحياتية على المسؤولية تجاه الإنسانية القادمة والبعيدة الموكلة لحراستنا، وعلى البحث عن أشكال الاحترام الواجب للشخص سواء أكان هو الآخر أم المرء ذاته.<sup>1</sup>

**زرع الأعضاء:** يبدو أن التطورات العلمية والتقنية التي تسعى إلى بلوغ اليقين القطعي في ميدان الطب قد وصلت إلى نتائج وخيمة فيما يخص الحياة الإنسانية، ومن أهم ما وصلت إليه التطورات التقنية من مواضيع تخص الجوانب الطبية مثلا: معالجة الأمراض العقلية بالطرق الكيميائية، استنساخ الخلايا، الموت الرحيم، التدخل في الجينات، الإخصاب الاصطناعي، زرع الأعضاء ونقلها، هذا الأخير الذي يعد إجراء علميا دقيقا ومعقدا يستلزم كفاءة وتملكا واسعا للمهارات الطبية النظرية منها والتطبيقية، خاصة تلك المتطورة والمستحدثة رهنا، كما يقتضي التزاما بالشروط القانونية المعتمدة والمتفق عليها والتي لا تتأى عن احترام الأعراف والقيم الدينية، ولا عن المعايير الأخلاقية السائدة في فضاء كل جماعة إنسانية، غير أنه يبقى مسألة شائكة تثار في إطارها معضلات كثيرة لا يمكن أن نتغافل عنها، فالوضع الراهن يقتضي إعادة النظر في الحقل المفاهيمي والبعده الأخلاقي والقيمي لمسألة نقل وزرع الأعضاء، باعتبارها تعد من جهة أولى إمكانية تخفف من ألم ومعاونة المريض وتوفر كذلك حظوظ البقاء.<sup>2</sup> أي تحمي الإنسان من سرعة الفناء، إلا أنها تفتتح من جهة ثانية على عسر التجربة وتشابك لحظاتها، خاصة بالنسبة للمريض المعني بهذا الإجراء.

يفيد مصطلح زرع أو نقل الأعضاء في السياق الطبي: "إجراء يتم من خلاله تطعيم أو زرع نسيج أو عضو من الجسم ذاته أو من جسم آخر أو بين أنواع مختلفة مثلا من الحيوان

<sup>1</sup> جاكلين روس: مرجع سابق، ص 111.

<sup>2</sup> هيفاء النكيس، وآخرون الاخلاقيات التطبيقية والرهانات المعاصرة للفكر الفلسفي، اصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2016، ص 73.

إلى الإنسان. " كما تعني عبارة زرع الأعضاء تحديداً "أخذ عضو من جسم فرد آخر وزرعه في جسم المريض مع استعادة استمرارية عمل الأوعية الدموية." وتعد هذه العملية -زرع الأعضاء- من أهم منجزات الطب المعاصر وخاصة قطاع الجراحة فهي خلاصة ما انتهى إليه من تطور شامل في الطرق والمناهج والتطبيقات . وهذه العملية هي وريثة ما آلت إليه خطوات الطب التجريبي الحديث من انتصارات ونجاحات علمية متتالية، ذلك أن الطب التجريبي هو مجموع المعارف الطبية التي تعتمد أساساً على المنهج التجريبي كامتداد للمدرسة الوضعية مع مؤسسها فرانسيس بيكون إضافة إلى منجزات الفيزيولوجي كلود برنار<sup>1</sup>.

وتعد جراحة نقل أو زرع الأعضاء خطوة علمية وثيقة، وإضافة نوعية في دروب الانجاز العلمي الممتد، ولعل أول عمليات النقل والزرع انطلقت بمحاولات نقل الدم بعد اكتشاف فصائل الدم، وفي سنة 1905 أجريت أول عملية لزرع القرنية ليمتد الاهتمام بعد ذلك إلى الأعضاء الصلبة وفي سنة 1954 أجرى د. جوزيف موراي ببوسطن أول عملية زرع كلية لشاب يدعى ريتشارد هيرك أخذت من شقيقته التوأم، حيث عاش ومثلت هذه العملية انتصاراً كبيراً في مجال الطب.<sup>2</sup> "وأدت عمليات زرع الأعضاء إلى أحداث تغيرات في تصورات الأفراد وفي المجتمعات، كما ساهمت في إدخال مفاهيم جديدة مثل مفهوم الموت الدماغي، وأخلاقيات الطب البيولوجي وهو ما استدعى إلى ضرورة التفكير في سبيل تأطير قانوني وأخلاقي لمثل هذه العمليات." أي أن زرع الأعضاء وباعتبارها واحدة من أهم المواضيع التي واكبت العصر الحديث كان من الضروري إخضاعها ووضعها تحت

<sup>1</sup> هيفاء النكيس: مرجع سابق، ص 74.

<sup>2</sup> محمد رأفت عثمان: نقل وزرع الأعضاء، بحث مقدم إلى مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية، العدد الثالث عشر، مصر، 2009، د/ص.

مقياس أخلاقي، حتى لا تتجاوز هذه العملية إطارها المحدود ولكن السؤال الذي لا بد من طرحه: هل تحول الإنسان إلى مجرد قطع غيار؟. تشير تجربة نقل الأعضاء وزرعها بشكل اعتبار الإنسان كسيا من الأعضاء وهو ما يجرده من وحدته ويجزئه ويفرعه من كل دلالة<sup>1</sup>. لقد اختزل جسد الإنسان كمادة قابلة للتفكيك وللتخزين في مخابر البيولوجيا وبنوك المعطيات البيولوجية كجزئيات مفرقة، حيث ألغيت عنه كل رؤية كلية بحيث صار الإنسان الراهن سجيناً تائهاً في غياب سلطان الطب وقدراته السحرية العجيبة، وأصبح بالتالي رهين التدخل الطبي وقراراته الصارمة وهجمة آليات البيوتكنولوجيا، بعد أن راهن على قهر الفناء. إلا أن ما وصلت إليه علوم الجراحة راهنا من تطورات فهي لا تزال تغفل عما تثيره تجربة نقل الأعضاء وزرعها من إشكاليات تواجه المريض خفية وعلنا وتحير محيطه على السواء. وإذا لا أحد ينكر ما قدمه هذا المجال من إنجازات باهرة أعادت الأمل لعدت حالات، إذ يعد التقارب بين العلم والتقنية من أهم مكتسبات العلم المعاصر، ساهم في إيجاد حلول هامة في سبيل المحافظة على الحياة الإنسانية وكذا التغلب على الكثير من المعضلات، إلا أن العضو المزروع بجسم المريض يمثل مبعث حيرة وتساؤل لدى المريض، إذ سريعا ما تتحول إلى صراع مرير تواجهه ذاته في عالمها الداخلي، فالى أي مدى يمكن أن يتوافق المريض مع القطع المزروعة فيه باعتبارها جزءاً غريباً عنه؟ وأي منزلة لذات ذلك المريض، والتي تكون متأرجحة بين الاستئناس بالزرع الجديد والغربة عنه؟<sup>2</sup> إلا أنه يجدر بنا الإشارة أو بالأحرى طرح السؤال التالي: هل العالم مقبل على هيروشيما بيولوجية؟. وإذا أردنا الرجوع بلمحة تاريخية حول زراعة الأعضاء البشرية، ففي ق 16 فكر جراح بولوني يدعى غاسبارتا جليكوستي في زرع نسيج من شخص إلى آخر لإعادة تكوين الأنف واعترضت عملية

<sup>1</sup> هيفاء النكيس: مرجع سابق: ص 77.

<sup>2</sup> قفاف فاطمة: زراعة الأعضاء البشرية بين التجريم والاباحة، مذكرة ماستر حقوق، كلية الحقوق والعلوم السياسية، بسكرة، 2013/2014، ص 25.



الزرع صعوبات فنية لم يجد سبيلا لحلها، وفي ق 18 قام الجراح البريطاني هانثر بزرع أسنان مأخوذة من جنث موتى، ونجح في ذلك لكن الجهود الحقيقية فقد بذلت في القرن 19، وخاصة في مجال زرع جلد الإنسان كان أهمها ما قام به في إيطاليا الجراح بارونيو من تجارب لزرع الجلد بين حيوانات من نفس النوع لكن المحاولات الجادة لتحقيق زراعة الأعضاء لم تبدأ بحق حتى بداية القرن 20، حيث برز الدكتور أكسيس كاريل بابتكاره طريقة لخياطة الأوعية الدموية خياطة مباشرة لأنه أدرك ضرورة ذلك قبل أن يبدأ تجاربه على زرع الأعضاء لكنه لم يستطع فهم التفاعل بين الجسم القابل والعضو الجديد، غير أن السنين الأوائل من القرن 20 قد تمخضت عن عمليات ناجحة كانت تشبه بمحاولات زرع كل من الحيوانات إلى البشر، ولكن على الرغم من هذا التقدم العلمي والتقني الهائل ونجاح هذا الأخير في إعادة الأمل للإنسان في الحياة من جديد وإمكانية تغلبه على الكثير من المشاكل الجسدية التي كانت تؤرقه<sup>1</sup>، إلا أنه يجدر بنا هنا طرح السؤال الإتيقي حول مسألة زرع الأعضاء، حول مشروعية استخدام هذه الطريقة من جهة وحول قداسة الجسد البشري من جهة أخرى، فالموضوع - زرع الأعضاء - ليس بالأمر الهين فالبعض يشير إلى احتمال قيام عصابات قتل خاصة في المستقبل تتولى تزويد الأعضاء السليمة لجرحي السوق السوداء، الذين لا يرغب مرضاهم في الانتظار حتى توفر لهم المصادر الطبيعية ما يحتاجون إليه من قلوب وأكباد وكلى وعيون، ولقد بدأت في واشنطن الأكاديمية الوطنية للعلوم في دراسة قضايا السياسة الاجتماعية التي تفجرها اليوم منجزات الثورة البيولوجية والتقدم في علوم الحياة عامة، ويبدو أنه ما من جسم للخلاف والنقاش والخوف والحذر من موضوع زراعة الأعضاء وانعكاسه سواء الاتجاه نحو صنع الأعضاء البديلة للجسم البشري يقول البروفيسور ليدربرج: " لم يعد بيننا وبين إنتاج قلب صناعي اقتصادي سوى عدد قليل من الاتفاقات الزائفة" ، كل ذلك قد بلغ مراحل مختلفة وسعنا أن نزرع في أجسامنا أجهزة إرسال صغيرة تعطي إشارة عندما

<sup>1</sup> سعيد محمد الحفار: البيولوجيا ومصير الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، 1984، ص 122.

يكون هناك شيء غير عادي<sup>1</sup> قد يكون من نافلة القولتأكدنا على أهمية التطور الحاصل في ميدان الطب وأنه تطور نقل الإنسان إلى حياة أفضل، حتى أصبح يفكر ليس فقط بعلاج المرض بل كذلك في استبدال عضو من أعضائه بعضو جديد ، كما أصبح يفكر في تقديم أو تأجيل الموت.<sup>2</sup> إنها الإمكانية الواسعة التي يطرحها العلم الراهن أمام الإنسان في علاج جسمه، إلا أن هذا التقدم بكل عضو من أعضائه بعضو جديد ، كما أصبح يفكر في تقديم أو تأجيل الموت ،أنها الإمكانية الواسعة التي يطرحها العلم الراهن أمام الإنسان في علاج جسمه، إلا أن هذا التقدم بكل مظاهره أفرز كثيراً من التساؤلات ذات الطابع الأخلاقي حيث يبحث ذلك الفرع والموسوم بالبيواطيقا LA BIOETHIQUE حول مدى مساهمة هذا التطور العلمي خصوصاً التقني في خدمة الإنسان أم الحد من كرامته؟

### الاستنساخ:

إن التقدم العلمي و التكنولوجيا و أثناء تدخله في مجال الطب لم يقتصر فقط على زرع الاعضاء ، و إنما لمس كل الجوانب الخاصة بحياة الإنسان، و ما نؤكد عليه هو ان الجسم كان ولا يزال محورا اساسيا للبحث الفلسفي، فبعد ان كان الاختلاف قائما بين الفلاسفة قديما وحديثا حول علاقة الجسم بالنفس ، ها هو اليوم محور بحث علمي وأخلاقي في الوقت ذاته نتيجة ظهور الاشكاليات الاخلاقية المترتبة عن التطور الحاصل في ميدان الطب ، ذلك ان التقدم الهائل الذي أحزره العلم في التعرف على جسم الانساني، اعتبره البعض عبثا بقديسية هذا الكائن الذي نظر اليه دائما نظرة مهابة وتقديس مقابل الكائنات الاخرى، بل حتى مقابل الطبيعة.<sup>3</sup> إن واحدة من أكثر الإمكانيات التي ستتجها هذه المكتشفات إثارة ، هي أن الإنسان سيصبح في وسعه أن ينتج بيولوجيا صوراً بالكاربون لنفسه فمن خلال عملية تسمى الاستنساخ سيكون من المستطاع أن ننشئ من نواة مأخوذة

<sup>1</sup> سعيد محمد حفار: مرجع سابق، ص 123.

<sup>2</sup> حسن مصدق، علي المحمداوي، وآخرون: مرجع سابق، ص 203.

<sup>3</sup> المرجع نفسه: ص 204.

من خلية إنسان بالغ كائنا جديدا له نفس الصفات الوراثية للشخص الذي أخذت منه نوية الخلية ، أي أن هذه الطريقة أتاحت للإنسان فرصة جديدة من أجل ان يرى نفسه وهو يولد من جديد ، وامكانية ملأ العالم بتوائم لأنفسهم، ليس من شك في أن الاستنساخ البشري قد يخلق للجنس البشري نفسه تعقيدات لم يحلم بها إنسان من قبل، إنها على سبيل المثال فكرة جذابة حقا أن يعمد شخص مثل ألبرت أنشتاين إلى استنساخ صور من نفسه، ولكن ماذا عن شخص مجرم، ضليع في الإجرام وسفك الدماء؟ هل ستكون هناك قوانين تنظم وتضبط عملية الاستنساخ فمازالت هناك صعوبات مركبة يمكن أن تترتب عن عملية الاستنساخ البشري، ومن ثم فإن العالم ليدبرج يثير سؤالا، حول ما إذا كانت عملية الاستنساخ البشري في حالة السماح بها حرية بأن تصبح حرجة، أنها سوف تصبح حرجة بالفعل إذا ما كانت هناك فوائد إيجابية لجعلها كذلك.<sup>1</sup>

#### أما عن مفهوم الاستنساخ:

**اللغة:** مشتق من نسخ نسخا الشيء ،أزله أبطله ، والنسخ إبطال الشيء و إقامة آخر مقامه. و هذا التعريف يعني أن يحل محل الشيء شيئا آخر مغاير له ،إذ يتم إبطال الأول و إثبات الثاني ، كما تفيد هذه الكلمة أيضا معنى النقل كأن نقول نسخ الكتاب، نقله واستنسخ الشيء بمعنى نسخه أي طلب منه نسخه ،أي جعل الشيء له صورة مطابقة له .

**اصطلاحا:** تستخدم الكلمة CLONE في عدد من الطرق المختلفة في البحث البيولوجي ولكنها في معناه الأكثر بساطة ودقة تشير إلى نسخة وراثية صحيحة لجزيء، أو خلية أو نبات أو حيوان أو كائن بشري، وفي بعض هذه السياقات تشير كلمة استنساخ إلى تقنيات معينة، لمدة طويلة من الزمن جزءاً من المهنة الزراعية وتشكل اليوم جزءاً هاماً من أسس

<sup>1</sup> سعيد محمد الحفار: مرجع سابق، ص، ص 111، 112.

البحث البيولوجي الحديث<sup>1</sup> إن الاستنساخ هو إيجاد نسخة طبق الأصل عن شيء ما من الكائنات الحية نبات أو حيوان أو إنسان<sup>2</sup> أي خلق العديد من الأشياء المماثلة لبعضها البعض ، بحيث تكون مطابقة لبعضها ، سواء على المستوى الزراعي أو الحيواني أو الإنساني، وبالرجوع إلى مراحل تطور الاستنساخ نرى أن سنة 1938 هي السنة التي اكتشف سبيمان هانس ( 1869، 1941) إمكانية نقل نواة خلية جسدية في بويضة تم إفراغها من نواتها حيث توجد المادة الوراثية، هذا ما تسمح للعالمين ( وبرت بريجس وتوماس كنج) سنة 1952 وللمرة الأولى في تاريخ البيولوجيا بالتأكد من إمكانية نقل نواة خلية جسدية متحصل عليها من شرغوف في بويضة منزوعة النواة، حيث لاحظ بعد هذه العملية أن الخلية تنمو كما تنمو الخلايا الأخرى طبيعياً، وفي سنة 1953 اكتشفت فيها التركيبة الكيميائية DNA بحيث نجح العلماء من استخدام سائل حيوان منوي بشري تعرض للتخصيب الاصطناعي، وفي عام 1962 استطاع العالم الأمريكي جون جوردن أن يستنسخ أجنة الضفادع، لكن الأجنة ماتت في أطوارها الجنينية ولم تصل إلى الطور البالغ، وفي سنة 1970 نجحت عملية استنساخ الفئران من الأجنة المخصبة، ثم يأتي العام الذي يتوصل فيه إيان ويلموت اي عام 1997، إلى استنساخ النعجة دولي من خلايا بالغة وهو ما لم يحدث من قبل، على اعتبار أن الاستنساخ كان يجري فقط باللجوء إلى خلايا مبكرة غير متخصصة، ليأتي العام الذي أثار أنتينوري الطبيب الإيطالي أي عام 2001 ضجة لا مثيل لها في تاريخ البشر عندما اقترح المرور إلى استنساخ البشر، ويتفرق الاستنساخ إلى عدت أنواع نذكر منها:<sup>3</sup>

<sup>1</sup>كمال خابر: الاشكالية الاخلاقية للاستنساخ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر2، بوزريعة السنة الجامعية 2011، 2012، ص 51.

<sup>2</sup>زولوم عبد القيم: حكم الشرع في الاستنساخ، نقل الأعضاء، الإجهاض، وقضايا أخرى، ط1، (دم)، 1985، ص7.

<sup>3</sup> كمال خابر: الاشكالية الاخلاقية للاستنساخ ، مرجع سابق ، ص ص54، 55 .

**الاستنساخ التوالدي:** في استنساخ الجنين مثلاً يلجأ العلماء إلى فصل الخلية من الكتلة الجينية قبل تخصص الخلايا الموجودة فيه، لتشكيل الأجهزة المختلفة في الجسم ثم يتم إغلاق غشاء الخلية الذي فتحه عند فصلنا للخلية المذكورة، ليصبح لدينا خليتان معروفتان كل واحدة تحتوي على نفس مكونات الوراثة الأخرى، تدفع هاتان الخليتان في الرحم ليخرج المولودان متشابهين من الناحية الوراثة والشكلية وهذا ما يعرف بالتوأّم<sup>1</sup> ، وهي طريقة تستخدم في أغلب الأحيان من أجل الحصول على جنينين متشابهين من خلية أو بويضة واحدة .

**الاستنساخ العلاجي:** يقوم على نفس المبدأ من حيث نقل نواة جسدية في بويضة منزوعة النواة ليس للحصول على إنسان تام يشبه المانح للخلية في 90% من صفاته الوراثة وإنما لأغراض علاجية<sup>2</sup>، بمعنى أن هذا النوع من الاستنساخ غرضه أخلاقي علاجي وليس غرضه تطبيق المخترعات التكنولوجية على حياة الإنسان من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من التقدم ، و ذلك على حساب كرامة الإنسان و قداسة جسده .إلا أنه وبالنظر إلى منطق نظري وتطبيقي، تظل حدود هذا الفصل متأرجحة، فالأولوية التي كانت تهدف إلى عدم السماح بالتدخل الوراثي في مستويات يجعل المساس بها في وضع تحسين للخصائص الوراثة للنسل، تضعنا أمام مفارقة تعد هائلة لأننا سنضع أنفسنا أصلاً في ميدان ليست له حدود معروفة ومحددة بل حدوده متغيرة ولا يعرف حتى العلماء الوقوف عند أحد منها وهنا تكمن الحجة بالمناسبة التي تستعمل لغاية الدفاع عن تحسين النسل وفق قاعدة العرض والطلب او حتى عند الحاجة فهي لا تعترف بحدود بين تدخلات بغاية العلاج والتدخلات بغاية تحسين النسل، لكن تترك للرغبات الفردية الفاعلة في السوق اختيار الغايات التي توجه التدخلات بهدف الخصائص الوراثة، ويرى هابرماس في تحليله للتداعيات الأدائية التي أصابت بيولوجية الإنسان،" ما دام إنتاج واستعمال الأجنة لأهداف البحث الطبي يزداد

<sup>1</sup>رياض أحمد عودة:الإستنساخ في ميزان الإسلام ، دار أسامة للنشر و التوزيع ، الأردن ، 2003 ، ص56.

<sup>2</sup>كمال خابر: مرجع سابق، ص\_ ص 54\_60.

ويصبح عادي فالرؤية للحياة الإنسانية قبل الولادة تتغير ومن نتائجها أن إحساسنا الأخلاقي بدأ يزوي وتنطفئ جمرته لفائدة الثمن والربح بطريقة حسابية محضة. "بمعنى أن الرؤية العلاجية للإنسان قد سمحت باستخدام ما يعرف بالاستنساخ العلاجي ، حتى وإن كان يحمل في بذوره الشر في طياته ، و عليه تغيرت نظرتنا الأخلاقية للإنسان حسب هابرماس تحت ما يعرف بخط الربح و الثمن ، حسب أن التقنيات الحديثة علميا بخاصة تقنية التشخيص الوراثي ما قبل الزرع تمكن من توجيه استعمال الأجنة المنتقاة بغاية تصحيح اعوجاج وتشوهات وراثية خطيرة،<sup>1</sup> بيد أن ذلك يخفي كما يلاحظ هابرماس صراعاً يتجاذب فيه الإنسان بين نظرة أدائيه ذاتية ومحاولة تأقلم من ناحية ومن ناحية أخرى عدم استعداده أن يجد جسده في صورة إنسانية متطورة ،وهو ما يعني في نظره أن الحدود في عصر الطفرة التكنومعلوماتية غير مستقرة بين الطبيعة والثقافة، أي بين مواد عضوية طبيعية ومواد عضوية مصنعة أي بين ما هو مقبول بحسب بعض الشروط من جهة ، وبين ما لا يمكن قبوله بوجه مطلق من جهة أخرى والحق الذي لا مرأى ، فيه أن الحدود بين الاستنساخ العلاجي والاستنساخ بغاية إعادة إنتاج كيفما كانت تبريراتها غير واضحة بالمرّة، يطالب هابرماس بموجب ذلك بوقف تدخلات في الجينات الإنسانية عند الحدود التي يندرج تجاوزها بتغيير الخصائص الوراثية وتحسينها ضدّاً على طبيعتها الأصلية، وهذا يدل على رفض هابرماس المطلق للاستنساخ بكافة صورته سواء منه العلاجي أو غير العلاجي ، و اعتبره بذلك تجاوزاً على كرامة الإنسان و قداسة جسده ، والسؤال الذي يبقى مطروح: إلا تنذر الإمكانيات المتاحة من طرف بيولوجيا الجزئية بتحول عميق في أسس المجتمعات البشرية؟ وهل يؤدي التدخل في الجينات إلى تغيير فهمنا الذاتي، كنوع حيواني له خصوصياته؟ وهو تغيير ربما يمس بالأسس المعمارية للاندماج الاجتماعي؟

<sup>1</sup> حسن مصدق، علي عبود المحمداوي: البيواطيقا والمهمة الفلسفية، مرجع سابق، ص، ص 244، 245.

وعليه فإن الإنسانية يحق لها أن تعبر عن قلقها من خطر إمكانية إساءة استعمال المعرفة العلمية الجديدة بعيداً عن القيم الأخلاقية الإنسانية، ومن هنا جاءت الضرورة الملحة إلى مراقبة هذا التطور العلمي خاصة في مجال الهندسة الوراثية، لأن التلاعب بالمخزون الوراثي للإنسان قد يؤدي إلى كوارث جديدة للبشرية وهذا هو دور الخطاب الجديد لأخلاقيات الطب والبيولوجيا من خلال اللجان الأخلاقية<sup>1</sup>

### التعليم الإلكتروني:

شهد عصر ما بعد الحداثة ثورة في التقنيات والنظريات العلمية وإعادة النظر في كثير من الأساليب والمناهج خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، إن التحول الحاسم الذي حدث في تاريخ البشرية من خلال ظهور العصر العلمي والتقني والذي بلغ ذروته الآن، يرتبط نشوء هذا العصر بالانفصال التدريجي الذي حدث بين العصور الوسطى وبدايات العصور الحديثة على مشارف القرن 15، وهو الانفصال الذي تميز في أوروبا اقتصادياً ببداية نشوء الاقتصاد الرأسمالي واجتماعياً بنشأت البرجوازية ونشوء المدن الكبرى وبتبلور مكانة ووعي الفرد بذاته وسياسياً بانتقال المشروع السياسية من المشروع الدينية إلى المشروعية المؤسساتية وفلسفياً ببلورة العقلنة والنزعة الإنسانية.<sup>2</sup>

ولعل التطور التقني الذي يشهده العالم اليوم لم يمس فقط الجانب الطبي فحسب بل شمل كذلك الجانب التعليمي ليغزو التقدم العلمي المجالات التربوية وعليه ظهر ما يعرف بتكنولوجيا التعليم فما المقصود بهذا الأخير؟ "من الصعب إعطاء تعريف جامع مانع لتكنولوجيا التعليم ولكن يمكن تقديم مفهوم لها متن حيث صلتها بالتطبيق التربوي من جهة وبالمكتسبات التكنولوجية من جهة أخرى"، بمعنى أن تحديد المفهوم من وجهة هذا النظر تقتضي أن تكنولوجيا التعليم هي الربط بين التقدم التقني من جهة و التعليم من جهة

<sup>1</sup> مصطفى كيجل: الأخلاقيات التطبيقية والرهانات المعاصرة للفكر الفلسفي، مرجع سابق، ص 25.

<sup>2</sup> حسن مصدق، علي عبود المحمداوي: مرجع سابق، ص 60.

أخرى، فالمطبق التربوي يقوم بعدد من الممارسات بترتيب معين ومحدد مستخدماً في ذلك بعض الأدوات أو المواد الثقافية وهذه العلاقة بين هذه المواد والأعمال التي يقوم بها مع معرفته الجيدة بهما وهي نوع من المعرفة التقنية والتطبيقية التي تربط التطبيق التربوي بالعلوم السلوكية، مثلما تربط العلوم الطبية بين الممارسات الطبية التي يقوم بها الأطباء وبين العلوم الأساسية ذات العلاقة كالتشريح أو الكيمياء، و بناءً عليه فإن تكنولوجيا التعليم: "هي علم صناعة الإنسان، وتعني بتصميم البيئات والظروف وفق المعرفة العلمية عن السلوك الإنساني، بغية بناء شخصية أو تكوينها التكوين النفسي الاجتماعي المستحب."<sup>1</sup>

ولقد تعرض المفهوم الحديث لتكنولوجيا التعليم للعديد من التعريفات من قبل جملة من المختصين ونذكر منهم ما يلي:

**تعريف تشارلز هوبان:** "هي عبارة عن تنظيم متكامل يضم الإنسان، الآلة، الأفكار، الآراء، أساليب العمل والإدارة بحيث تعمل داخل إطار واحد."؛ أي السعي نحو تحقيق انسجام بين ومختلف الجوانب التي تحيط به في إطار واحد.

**تعريف الموسوعة الأمريكية 1978:** "هو ذلك العلم الذي يعمل على إدماج المواد والآلات ويقدمها بغرض القيام بالتدريس وتعزيزه، وتقوم في الوقت الحاضر على نظامين الأول هو الأدوات التعليمية والثاني هو البرمجيات التعليمية."؛ ونفهم من هذا التعريف أن تكنولوجيا التعلم هي عبارة عن علم هدفه تحسين التعليم وتعزيزه.

**تعريف هوكرديج:** "هي كل ما في التعليم تقريبا من تطور المناهج إلى أساليب التعليم و وضع جداول الفصول باستخدام الحاسوب."

<sup>1</sup> عبد الحافظ محمد سلامة: وسائل الاتصال والتكنولوجيا في التعليم، دار الفكر، ط 6، الاردن، 2006، ص 14.



وبالرجوع إلى التطور التاريخي للمصطلح نرى بأن مفهوم التكنولوجيا ارتبط بالصناعات لمدة تفوق القرن والنصف قبل أن يدخل المفهوم عالم التربية ، وما أن دخلت التكنولوجيا مجال التربية والتعليم حتى ارتبط بمفهوم استخدام الآلات والأدوات في التعليم وضمن هذا المفهوم فإن تكنولوجيا التعليم تؤكد على أهمية معنيات التدريس مثل: (أجهزة العرض والتسجيل و التحاكي والتلفزيون وآلات التدريس وغيرها من الأجهزة والأدوات) سواء ما صمم منها خصيصاً لهدف الإعانة في التدريس أو ما استعير من ميدان الصناعات البحثية.<sup>1</sup>

وانطلاقاً من هذا المفهوم فإن هدف تكنولوجيا التعليم: "يتلخص في زيادة تأثير التدريس والتعليم أكبر عدد ممكن من التلاميذ دون زيادة فعلية في تكلفة التلاميذ." أي محاولة جلب انتباه واهتمام التلاميذ وتوجيههم نحو التدريس لتفادي زيادة التكلفة.

ولم يحقق استخدام الأجهزة والأدوات كعوامل معينة أو مساعدة في عملية التدريس من انتشار الفكرة التي تركز على دور المعلم في التدريس والتي تضع بين يديه مفتاح العملية التربوية بأكملها والتي تقصر دور التلميذ على دور المستمع والمتلقي في معظم الأحيان وأماً ظلت هذه الفكرة موجودة إلى تطوير مفهوم تكنولوجيا التعليم من مجرد العناية بالأجهزة والأدوات كمعنيات سمعية وبصرية إلى دراسة المواد السمعية والبصرية والاستفادة منها في مواقف التدريس المختلفة. ولقد اعتمد الدارسون في ميدان الوسائل التعليمية على علم السبرناتيقا: "أي علم علاقة الإنسان بالآلة، حيث بدأ الاهتمام ينصب واضحاً على تحليل العلاقة التي تربط الإنسان بالآلة أو الإنسان بالإنسان في المواقف التعليمية المختلفة."<sup>2</sup>

وإذا أردنا وضع وضبط تعريف محدد للتعليم الإلكتروني: "أنه نظام تفاعلي يعتمد على بيئة الإلكترونية متكاملة، ويستهدف بناء المقررات الدراسية بطريقة يسهل توصيلها بواسطة

<sup>1</sup> عبد الحافظ محمد سلامة: مرجع سابق، ص 15.

<sup>2</sup> مرجع نفسه: ص 16.

الشبكات الإلكترونية، وبالاعتماد على البرامج والتطبيقات التي توفر بيئة مثالية لدمج النص بالصورة والصوت." بمعنى أن المقررات الدراسية أصبحت خاضعة لنظام

إلكتروني محكم ومتكامل.<sup>1</sup> بمعنى أن المقررات الدراسية أصبحت خاضعة لنظام إلكتروني محكم ومتكامل، بحيث يسهل توصيل المعلومة وتلقيها، حيث أنها تقدم إمكانية إثراء المعلومات من خلال الروابط إلى مصادر المعلومات في مواقع مختلفة فضلاً عن إمكانية الإرشاد والتوجيه وتنظيم الإخباريات وإدارة المصادر والعمليات وتقويمها ويعرف أيضاً: "بأنه منظومة تعليمية لتقديم البرامج التعليمية أو التدريسية للمتعلمين أو المتدربين في أي وقت وفي أي مكان باستخدام تقنيات المعلومات والاتصالات التفاعلية." مثل: الانترنت الإذاعة القنوات المحلية أو الفضائية البريد الإلكتروني أجهزة الكمبيوتر المؤتمرات عن بعد. وذلك لتوفير بيئة تعليمية تفاعلية متعددة المصادر بطريقة متزامنة في الفصل الدراسي، أو غير متزامنة عن بعد ودون التزام بمكان محدد اعتماداً على التعليم الذاتي والتفاعل بين المتعلم والمعلم ،ولقد تعددت أشكال التعليم الإلكتروني لتشمل مجموعة من الأشكال وتتمثل فيما يلي:

1. التعليم الإلكتروني باستخدام الأقراص المدمجة.

2. التعليم الإلكتروني باستخدام الانترنت .

3. التعليم الإلكتروني باستخدام الكتب الإلكترونية.

الكتاب الإلكتروني أو أي مطبوع بشكل عام يوجد على هيئة الكترونية ، ويمكن توزيعه الكترونياً عن طريق الانترنت والبريد الإلكتروني والنقل المباشر للملفات، أو النقل على أي من الوسائط التخزينية المختلفة، وقد بدأ استخدام الكتب الإلكترونية في مجال التعليم

<sup>1</sup>عكنوش نبيل: التعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد بالجامعة الجزائرية، دراسة للواقع في ظل مشروع البرنامج الوطني للتعليم عن بعد، مجلة المكتبات والمعلومات، العدد الثالث، 2010، ص 132.

الإلكتروني مع بداية عام 2000 على سبيل التجربة في بعض مدارس الولايات المتحدة الأمريكية.<sup>1</sup> وقبل أن ندخل إلى إسهامات تكنولوجيا التعليم في مواجهة المشكلات التربوية المعاصرة لابد من القاء الضوء على هذه المشكلات التي نجمت بالأساس عن سلسلة تغيرات طالت جميع نواحي الحياة وهذه المتغيرات هي:

1. الانفجار السكاني: حيث ازداد تعداد سكان العالم بسرعة هائلة رغم اختلاف نسبة الزيادة من بلد لآخر، هذه الزيادة بدورها انعكست على التعليم حيث ازدادت الفصول الدراسية والمدرجات ازدحاماً. "أي أن الازدياد المتواصل لأعداد السكان أدى بالضرورة إلى زيادة في مقاعد التعليم الأمر الذي أدى إلى نوع من الفوضى والازدحام داخل الأقسام؛ وقد أدت ظاهرة الازدحام إلى الاستعانة بالوسائل الحديثة في التعليم كالإذاعة والتلفزيون وغيرها إضافة إلى تغير دور المدارس؛ من ملقن للمادة إلى تهيئة مجالات الخبرة للطالب وتوجيه عمليات التعليم وإعداد الوسائل المؤدية إلى ذلك.

2. الانفجار المعرفي: حيث تزايدت العلوم في جميع نواحيها نتيجة للتقدم العلمي وهذا أدى بدوره إلى زيادة موضوعات الدراسة في المادة الواحدة، هذا الكم والنوع الهائل من المعارف أصبح مشكلة تربوية في حد ذاته؛ يبرز دور التكنولوجيا التربوية من أجل هذه المشكلة، حيث يمكن لكثير من الوسائل التعليمية أن تتفقد هذه المعلومات في وقت أقصر وبصورة أعم وأشمل، وبطريقة مشوقة تساعد على زيادة التعليم وفهم المادة والإحاطة بترابط الموضوعات المختلفة مما يؤدي إلى وحدة المعرفة ومن هذه الوسائل: التلفزيون التعليمي الحاسوب التعلم المبرمج وغيرها.<sup>2</sup> وعليه ساعدت التكنولوجيا على ترتيب الكم المعرفي الهائل، وتنظيم المعلومة وجعلها أشمل في وقت أقصر.

<sup>1</sup> حليلة الزاوي: التعليم الإلكتروني بالجامعة الجزائرية ، رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير علم مكتبات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2012/2011، ص- ص 58-63.

<sup>2</sup> عبد الحافظ محمد سلامة: مرجع سابق، ص، ص 19، 20.

3. تطور فلسفة التعليم وتغير دور المدرس: هذا يقودنا إلى الحديث على هدف التعليم ودور المدرس في النموذج التقليدي ثم في النموذج التكنولوجي الحديث ففي المرحلة التقليدية كان التلقين وحشو ذهن المتعلم بالمعلومات والذي يقوم بهذه المهمة هو المدرس محور العملية التعليمية، بينما في ظل تكنولوجيا التعليم أصبح الهدف الأساسي للتعليم اكتساب المتعلم خبرات تؤهله لمواجهة مشكلات الحياة وأصبح بالتالي المتعلم هو محور العملية التربوية وتغير دور المعلم من ملقن الى موجه ومصمم للتعليم.<sup>1</sup>

ولعل أهم مثال يمكن تقديمه حول تدخل التقنية في المجال التعليمي هو الكمبيوتر حيث وفي السنوات الأخيرة بدأ استخدام الكمبيوتر في عمليتي التعليم والتعلم من الدول خاصة منها المتقدمة منها، والكمبيوتر ليس فقط وسيلة تعليمية بل هو عبارة عن عدة وسائل في وسيلة واحدة كونه يقوم بوظائف جديدة فهو يوفر بيئة تعليمية تفاعلية كما يعتبر الكمبيوتر مدخلا أو منهجا في مجال تعليم وتعلم مختلف الموضوعات الدراسية، ومع تطور أجهزة الكمبيوتر ونظريات التعلم والتعليم تطور هذا المدخل وأصبح ظاهرة لها مدلولها ومبرراتها وأثارها في عمليتي التعلم والتعليم "إن استخدام الكمبيوتر في العملية التعليمية يعد من أحدث المجالات التي اقتحمها الحاسوب ومن المعروف أن المعلمين يقومون دائما بالبحث عن وسائل تعينهم على اداء وظائفهم التعليمية من أجل الوصول الى تعليم افضل." وظهرت في السنوات الأخيرة بعض الأجهزة التي تساعدهم للوصول إلى هذا

<sup>1</sup> عبد الحافظ سلامة: مرجع سابق، ص 21.

المبتغى ومن بين هذه الأجهزة: أجهزة التسجيل أجهزة الإسقاط الخلفية والأفلام التعليمية وأجهزة العرض السنيماي وغيرها<sup>1</sup>. وقد أدى استعمال الوسائط التكنولوجية عموماً في التربية والتعليم إلى ظهور مصطلحات جديدة مثل: التعليم الافتراضي، التعليم الإلكتروني ويشير هذا المصطلح الأخير إلى مجال واسع لاستعمال هذه التكنولوجيا الجديدة، من العمل على الحاسوب في قاعات التعليم إلى التواصل عن بعد مع برنامج دراسي كامل وهو يتميز عن التعليم التقليدي بمرونته في إدارة التعلم واستقلال ذاتي في اكتساب المعارف "وتعتبر الانترنت الوسيط الافضل لهذا التعلم الذاتي غير الرسمي، حيث يسرت ظهور جامعات وثانويات افتراضية، لكنها تكاد تقتصر على الدول الغنية لأنها تحتاج إلى حواسيب قوية وتوصيلات عالية التدفق وتأطير فني وعلمي متخصص للتعامل مع تحميل المواد الدراسية ومستلزماتها التربوية وهو الأمر الذي ما يفوق عادة طاقة الكثير من دول الجنوب. إن هذا وإن دل على شيء فإنه يدل على أن التعليم الإلكتروني يحتاج إلى مردود مالي قوي وذلك لإتمام ونجاح هذه العملية التربوية، الأمر الذي استطاعت الدول المتقدمة تحقيقه وذلك على خلاف الدول الفقيرة أو بالأحرى دول العالم الثالث.

يعد التعليم الإلكتروني من أهم التطبيقات التكنولوجية الاتصالات في مجال التربية والتعليم. حيث يقوم أساساً على ما توفره هذه التكنولوجيا من أدوات متمثلة في الحاسب الآلي والانترنت والتي كانت سبباً في انتشاره وتطويره، ويرى التربويون أن التعليم الإلكتروني يحقق عدداً من المزايا: منها أنه ينقل العملية التعليمية من المعلم إلى المتعلم ويجعله محور العملية التعليمية بما يجعل المتعلم فعالاً وإيجابياً طول الوقت وينمي مهارات البحث والتعلم الذاتي ومهارات التفكير من خلال جمع المعلومات وتصنيفها ونقدها<sup>2</sup>، كما أنه يساعد الأدوات التعليمية في التغلب على نقص المعلمين والتغلب على مشكلة الدروس

<sup>1</sup> نور الدين زمام، صباح سليمان: مرجع سابق، ص، ص 168، 169.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 170.

الخصوصية. إن الغوص في ميدان التعليم الإلكتروني يثبت بجدارة تفوق التقنيات الحديثة في جعل حياة الإنسان أكثر سهولة وفي شتى المجالات، إلا أنه وكما هو الحال في شتى نواحي الحياة هناك دائماً وجهان لكل عمل جيد وهو ما ينطبق أيضاً على التعليم الإلكتروني، "يعتمد التعليم الإلكتروني على الأنترنت وهذه الأخيرة من حيث أنها تقنية وأداة اتصال ولكونها نظام مفتوح فإنه لا يعرف المعلومات المفيدة فقط ولكنها تقدم الكثير من الخدمات منها الصالح مثل البحوث العلمية ومنها الطالح مثل المواقع الإباحية." وعليه فإن الطالب والمؤسسات التعليمية التي تعتمد على التعليم الإلكتروني سوف تكون عرضة لكل ما يوجد به النظام المفتوح الذي تمثله شبكة الأنترنت، سواء كان مفيداً أو ضاراً، بالإضافة إلى أن الأنترنت أداة معقدة التقنية من حيث الأجهزة ووسائل الاتصال، ولذلك فإن إدخال التعليم ضمن البيئة التحتية لهذه الشبكة، وفي ظل نقص التمويل وشبح الموارد التي تعاني منه معظم المدارس في العالم فإن الوقت لا يزال مبكراً بعض الشيء لافتراض امكانية النظر في إدخال التعليم الإلكتروني وتوفير شبكة الأنترنت في معظم القاعات الدراسية على نطاق العالم في المستقبل القريب.<sup>1</sup>

وبالرغم من توفر مختلف العناصر المادية للوصول إلى نظام تعلم إلكتروني متكامل ومستمر، يبقى العنصر الأهم هو العنصر البشري، فلا بد من توفير عدد كاف من الكوادر البشرية المؤهلة القادرة على متابعة عمل النظام المترامي الأطراف وصيانة وضمان انتساب المعلومات في جميع الاتجاهات داخل الشبكة وليس ذلك وحسب بل يجب ان يكون المعلم والموظف قادرين على استخدام التكنولوجيا بوعي وبشكل يخدم العملية التعليمية إضافة إلى ذلك فإن دور الإبداع في أساليب التعليم واستغلال التقنيات ليس غايته الحصول على المعرفة وحسب بل أيضاً توليدها". ومن ثم يمكننا أن نتساءل ما إذاً كان

<sup>1</sup>فياض عبد الله علي، رجاء كاظم حسون: التعليم الإلكتروني والتعليم التقليدي دراسة تحليلية مقارنة، كلية بغداد للعلوم الاقتصادية، العدد 19، 2009، دص.

التقدم التقني الذي شهده التعليم وبروز ما يعرف بالتعليم الإلكتروني نعمة أو نقمة على البشرية، وهل سيلغي هذا التعليم شخصية الأستاذ ويطمس هوية التلميذ؟ وهل الاستفادة منه ستكون سلبية أم ايجابية وللإجابة على هذه الاسئلة كان لابد من التدقيق في ما أضافه التقدم التقني ومعرفة كيفية استغلاله نحو ما هو مفيد.<sup>1</sup>

### البيئة:

يعتبر علم البيئة من أكثر العلوم البيولوجية تشعباً وجدارة بالتدبر ولعل الكل مجمعون على تعريفه بأنه: العلم الذي يتناول بالدراسة تلك التفاعلات الدائرة بين الكائنات المتعضية والوسط المحيط بها بشقيه الحي وغير الحي، ولكن هذا التعريف واسع المحتوى لدرجة هائلة ، لذلك فان مصطلح ايكولوجي قد صاغه ( هيكل) تعبيراً عن ما وصفه بأنه شؤون بيت الطبيعة و لكنه ما لبث بعد ثلاث سنوات أن طرح تعريفاً أكثر تحديداً يتضح من قوله: " إن ما نغنيه بكلمة ايكولوجي هو دراسة مجموعة العلاقات التي تربط الحيوان بالوسط المحيط به عضوي كان أو غير عضوي وبشكل مباشر أو غير مباشر.<sup>2</sup> فكلما ايكولوجي تعني باختصار دراسة كل التفاعلات المعقدة المتبادلة بين الكائنات والتي أشار إليها دارون بأنها عناصر الصراع من أجل الوجود. وبالعودة إلى تاريخ علم البيئة نعود إلى عصر أرسطو طاليس وحتى عصر لينوس وبنفن ودراسة التاريخ الطبيعي عليها الطابع الوظيفي، ولم يقتصر دارسو الطبيعة آنذاك على تسجيل مشاهداتهم ، بل كانوا أيضاً يعتقدون المقارنات ويقترحون النظريات الايضاحية التي تعكس روح العصر - عصر ظهور علم التاريخ الطبيعي- ق 18 والنصف الأول من ق 19 حيث كانت الايديولوجية السائدة ذات مفاهيم لاهوتية يعم بمقتضاها الانسجام بين كل ما يجري في الطبيعة . حيث يقول أرنست

<sup>1</sup> حليلة الزاخي: مرجع سابق، ص 62.

<sup>2</sup> أرنست ماير: هذا هو علم البيولوجيا دراسة في ماهية الحياة والاحياء، ترجمة: عفيفي محمود عفيفي، عالم المعرفة، الكويت، 1990، دص

ماير في صدد ذلك: " فالصراع بين الكائنات من أجل البقاء واستقرار الحياة والاحياء نتيجة للتوازن بين الكثرة المفرطة في النسل وعوامل الفناء كل هذه كانت في رأي دارسي الطبيعة آنذاك أمور محمودة تجري في خطة محكمة وفق لمشيئة مطلقة." وعلى أي حال لم يكد القرن 19 ينتصف حتى فقد علم اللاهوت الطبيعي سيطرته الفكرية وأفسح الطريق للعلمانية، التي ازدادت قوتها رسوخا وفي ذلك يقول أرنست ماير: "جعل دراسات التاريخ الطبيعي تتجه نحو وجهة جديدة، فلم تعد تقتصر على المشاهدة والوصف، بل أضافت إلى ذلك المقارنة والتجريب والاستنباط واختبار النظريات التفسيرية".<sup>1</sup>

بمعنى أن دراسات التاريخ الطبيعي لم تبقى محصورة في نطاقها الضيق بل اتسعت إلى التجريب والاختبار. وتوافر هذه الأركان أكسب التاريخ الطبيعي مقومات علم البيئة متأثرا بمذهبين رئيسيين الفيزيائية والتطورية، وتمتد جذور الاتجاه الفيزيائي الى عام 1805 عندما نشر ألكسندر فون همبولت بحثه عن الجغرافيا البيئية للنباتات معطيا أهمية قصوى لدرجة الحرارة كعامل متحكم في كثافة الغطاء الخضري أفقيا ورأسيا، أما بالنسبة لمذهب التطورية، فقد بدأ يمارس أثره القوي في تطور الدراسات البيئية عندما نشر كتاب أصل الأنواع الذي انتقد فيه دارون الفكر اللاهوتي وأعطى الظواهر الطبيعية كالتنافس والتكيف مفاهيمها المحددة، وفي الوقت نفسه رفض دارون الفكر الغائي وإعترف بدور المصادفة في تقرير مصير أنواع الكائنات وعشائرها ، وعلى هذا المنهاج سار علماء البيئة المحدثون. حيث يقول أرنست ماير: "من بعد دارون إتسعت دائرة علم البيئة لتشمل جميع التغيرات السلوكية والفسولوجيا التي تهئ الكائن الحي للتوائم مع نمط حياته أو مع الوسط الخاص الذي يعيش فيه."

<sup>1</sup> أرنست ماير: مرجع سابق، د ص.



ولعل هذا يوضح جلياً تأثير علماء البيئة بدارون بحيث اتسع معه مجال علم البيئة ليتحرر من نطاقه الضيق الذي كان فيه من قبل ليصبح أشمل وأعم. أما عن علم البيئة اليوم فيمكن تقسيمه إلى ثلاث قطاعات : علم بيئة الأفراد، علم بيئة النوع، علم بيئة التجمعات أو العشائر ولقد كان علماء الحيوان يركزون على مشاكل القطاعين الأول والثاني، بينما كان علماء النبات يركزون على قضايا بيئة التجمعات.<sup>1</sup>

ونتيجة للشارع التقني والتقدم العلمي الهائل في شتى المجالات لم تسلم البيئة بدورها من إنجازات التقنية بحيث أصبحت البشرية بالفعل تعاني من مرض حاد مزمن يتخذ شكل حالة سيكوبولوجيا يمكن أن نصفها إذا استخدمنا لغة الطب أو الطب النفسي بأنها مرض التغيير. إن تسارع التغيير يعدل بشكل ما من التوازن بين الجديد والمألوف من المواقف.

وفي ذلك يقول سعيد محمد الحفار: "إن المجتمع أو البيئة المستقبلية نظراً لاتحاد التنوع فيها مع الزوال والجدة فإنها ستصعد نحو أزمة التكيف، أنها بيئة متحولة وغير مألوفة ومعقدة الى الدرجة التي تهدد الملايين بالانهيار التكيفي." أي أن البيئة تتجه من السوء إلى الأسوأ بحيث أنها أصبحت بيئة متحولة، غير مستقرة على حال واحدة لتهدد بذلك البشرية للدمار؛ ولعل التغيير البيئي المتسارع والذي أحدثه الإنسان ذاته انعكس بدوره عليه هو، إذ أن من منجزات الثورة البيولوجية البارزة اليوم حقيقة غامضة حتى أواخر القرن 20 مفادها أن المرض لا يحدث بالضرورة كنتيجة لعامل مفرد كجراثومة ممرضة أو فيروس، ولكن كنتيجة لعوامل متعددة من بينها طبيعة البيئة المحيطة بالجسم، وهذا ما أورده سعيد الحفار: "إن الطب اليوم يشرع الأهمية اللازمة للعوامل البيئية في إطار نظرية جديدة تسمى علم التنبؤ البشري" وقد أورد في نفس الصدد: "واليوم بعد أن تزايد الإحساس بأخطار تلوث الهواء وتلوث الماء وغيرها من العوامل وبدأت أعداد متزايدة من ثقات الاطباء تتجاذب إلى نظرية التنبؤ البشري القائلة: بضرورة النظر إلى الفرد باعتباره جزءاً من نظام

<sup>1</sup> ارنست ماير: ترجمة عفيفي محمود عفيفي، مرجع سابق، د ص.

كلي وأن صحته تعتمد على كثير من العوامل البرانية. "بمعنى أن تلوث الجو مثلاً الناتج عن دخان المصانع التي تتزايد كل يوم بشكل كبير وملحوظ يعود بالضرورة بالدرجة الأولى على الإنسان، ذلك أن الهواء الملوث سيكون الإنسان أول من يستنشقه، فهل أصبح الإنسان اليوم يبني ويدمر في ذاته وفي نفس الوقت.<sup>1</sup>

انعقد في عام 1972 بمدينة ستوكهولم عاصمة السويد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية وقد سبق انعقاد المؤتمر مرحلة إعداد اتصالات لمدى عامين حافلا بنشاط علمي شمل المجتمعات الصناعية والمجتمعات النامية، واختلفت وجهات النظر بين الدول الصناعية والدول النامية حول المسلك البشري الواجب اتباعه في البيئة، فقد رأت الدول الصناعية ضرورة أن تبقى الدول النامية دون خطط تصنيع ، لأن ذلك يؤدي إلى تلوث البيئة مما ينتج عنه مضاعفات وأضرار في مجالات عيش الإنسان المختلفة، واستشهدت هذه الدول بما تعانيه من مشكلات التلوث اقتصاديا وصحيا واجتماعياً، إلا أن الدول النامية اعتبرت هذا الصراخ بأهوال التلوث لا مبرر له مادام الناس في الدول الصناعية يتمتعون بمستوى معيشة مرتفع، وعلى الرغم من اختلاف وجهتي النظر فيما يتعلق بأسلوب التعامل مع البيئة إلا أن الذين اجتمعوا في ستوكهولم في أكتوبر عام 1972 تحت مظلة الأمم المتحدة أظهروا وعياً بأن مستقبل التنمية بل وربما بقاء الجنس البشري أصبح محفوظاً بأخطار متزايدة ، بسبب تصرفات الإنسان الخاطئة في البيئة التي بدأت تن من الأذى وتعجز عن امتصاصه<sup>2</sup>. أما بالنسبة للفظ " البيئة" فقد أعطاها مؤتمر ستوكهولم فهما متسعا بحيث أصبحت "تدل على أكثر من مجرد عناصر طبيعية، ( الماء، الهواء، وتربة، معادن، نباتات، حيوانات) بل هي رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع حاجات الانسان وتطلعاته" تعتبر البيئة نظام معقد يتكون من مجموعة

<sup>1</sup> سعيد محمد الحفار: البيولوجيا ومصير الإنسان، مرجع سابق، ص - ص 41-43.

<sup>2</sup> رشيد الحمد محمد سعيد صباريني: البيئة ومشكلاتها، عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص، ص 23.

من العناصر الحية وغير حية، تتفاعل فيما بينها مؤثرة ومتأثرة، تحكمها علاقات أساسية تحفظ لها تعقيدها ومرونة اتزانها.<sup>1</sup>

وتتكون البيئة من مجموعة من الأنظمة الأصغر تجري مكوناتها في سلاسل ودورات طبيعية تحفظ لها أيضا التعقيد ومرونة الاتزان، وقد تعرضت الأنظمة البيئية ولا تزال تتعرض للتغيرات من طرف الانسان - الزيادة المطردة في السكان والتلوث واستنزاف الموارد- لم تقدر في الكثير من الأحيان، على استيعابها في سلاسلها ودوراتها الطبيعية مما أدى إلى ارتباكها وتدهورها، ولقد أورد رشيد الحمد محمد "لقد احدث تدخل الإنسان في التوازن الطبيعي لأنظمة البيئة الكثير من المشكلات لبعضها آثار عالمية كتغير المناخ مثلا وهناك مشكلات أخرى تقتصر على أجزاء معينة من سطح الأرض مثل انحصار الغابات في بعض المناطق وانقراض بعض الحيوانات البرية والبحرية وزحف الصحاري وغيرها." وعليه يتبين لنا من خلال هذا القول أن الإنسان قد نسي أو تناسى أنه عنصر مكمل لعناصر البيئة واعتبارها مخزنا ضخم للثروة، فأطلق لقدراته البيولوجية العنان لاستغلال إمكاناته والسيطرة عليها وقد أدى هذا الخلل في تصور الإنساني إلى مجموعة من المشكلات تكاد تذهب بحياته على هذا الكوكب.

كما أورد: "فالنمو الانفجاري في عدد من السكان مشكلة، والتلوث مشكلة، واستنزاف موارد البيئة مشكلة وإخلال التوازن الطبيعي للبيئة مشكلة، أنها مشكلات صنعها الإنسان في البيئة وعليه اليوم ان يوجهها ويتغلب عليها، لكن وقبل ذلك عليه ان يفهمها."<sup>2</sup>

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن الانطلاقة الأساسية تمس الإنسان أولاً فحتى تزايد السكاني أضحى مشكلة لأنه بدوره يعكس ذلك الإخلال في التوازن الطبيعي للبيئة

<sup>1</sup> رشيد محمد الحمد صباريني: المرجع السابق، ص 24.

<sup>2</sup>مرجع نفسه: ص 25.

وبالتالي على الإنسان أن يتحمل ما صنعه بيديه ولكن بادئ ذي بدء عليه أن يستوعب ويفهم المعنى الحقيقي لهذه المشكلات وكل ذلك من أجل إيجاد حلول لها.

ومع عصر الصناعة وما اتصل به من عمران أصبح في إمكان الإنسان أن يعيش في بيئة من صنعه، حيث استطاع أن يشغل مصادر حفرية للوقود هي: الفحم والبتترول وبذلك أصبح يحرق مواد كربونية أكثر بكثير من قدرة النظم البيئية على الاستيعاب ونتج عن ذلك تزايد مطرد في أكاسيد الكربون في الهواء الجوي، كما أورد في ذلك رشيد الحمد : "إن الصناعة أصبحت قادرة على إنشاء مركبات كيميائية طاردة على النظم البيئية غريبة عنها".<sup>1</sup>

بمعنى أن الصناعة مكنت الإنسان اليوم من أن يعيش في بيئة من صنعه بما يوائم مصالحه، إلا أن الصناعة وكما كانت لها جوانب إيجابية، كان لها كذلك جوانب سلبية، بحيث خلقت مركبات كيميائية لا تتوافق مع البيئة؛ كما أنه توجد في الوقت الراهن في الأسواق العديد من المنتجات الصناعية والزراعية والطبية والكيميائية التي يحتاجها الإنسان بشكل يومي وتعد مخلفاتها ونفاياتها ذات أضرار بيئية كبيرة وجريمة يجب أن يحاسب عليها الإنسان، ويضع لها الحلول والسبل الكفيلة للحد من أضرارها الصحية والاقتصادية؛ بالإضافة إلى أن عناصر البيئة وفي مقدمتها المنظفات الصناعية والمستخدمة لأغراض التنظيف ومنها منظفات سالبة التآين والتي تحتوي على أيونات الصوديوم ومنظفات موجبة التآين. والتي تحتوي على أيونات الكلور أو البروم ومنظفات لا تتآين في الوسط المائي، والتي تعتبر ذات أضرار على النباتات والحيوانات وتؤدي إلى تعطيل هضم وتفكيك المخلفات العضوية بواسطة النشاط الميكروبي، كما يجب الإشارة إلى جريمة كبرى من جرائم البيئة التي يمارسها الإنسان بصفة مستمرة يوميا وهي التدخين والتي ينطلق منها جسيمات الدخان وهي عبارة عن جسيمات التنفسي العديد من الأضرار المزمنة مثل صعوبة التنفس

<sup>1</sup>رشيد الحمد محمد سعيد صباريني: مرجع سابق: ص - ص 24 - 110.

والحكمة<sup>1</sup> دقيقة تتجمع مع بعضها في حركة دورانية ثم لا تلبث أن تنتشتت في الهواء لتسبب للجهاز ولقد أورد عماد محمد ذياب الحفيظ في كتابه "البيئة، حمايتها، تلوثها، مخاطرها"؛ إن تلوث البيئة يظهر خلال الاستخدام اللاعقلاني من طرف الإنسان فهو عبارة عن الحالة على البيئة والناجمة عن التغيرات المستحدثة عند استخدام أحد عناصر هذه الحالة بأساليب غير صحيحة" وعليه فلا بد من الاستخدام الصحيح والعقلاني لأجل تفادي تلك الأضرار التي يلحقها الإنسان ببيئته، بسبب أن الاستخدام اللاعقلاني قد سبب للإنسان وبيئته الإزعاج والأضرار والأمراض المباشرة وغير المباشرة ، بسبب إخلالها للأنظمة البيئية ، ومكوناتها من كائنات حية وهواء وماء وتربة وهذا ما تسبب بظواهر غير طبيعية ، جعلت البيئة غير قادرة على تجديد مواردها الطبيعية التي تعمل على بقاء نظم بيئية جيدة ومناسبة للإنسان وأجياله القادمة بما يتناسب وسلامة تلك النظم وديمومتها، وينقسم التلوث البيئي إلى عدت أنواع فهناك التلوث الهوائي، التلوث المائي، وتلوث التربة.<sup>2</sup>

إن مبادرة الإنسان بالعدوان على بيئة الارض، لم يكن دافعها وراء هذا العدوان شرا متأسلا في نفسه، إنما وقع هذا التعدي من باب الغفلة في غمزة تقدمه العلمي والصناعي ولقد أورد نعمة الله عيسى وهو من بين المهتمين بقضايا البيئة اليوم: " لم يشهد الغلاف الحيوي في أية حقبة من عصر كوكبنا قدرا من التلوث مثل القدر الذي أصابه خلال العقود القليلة الأخيرة من القرن الماضي، فقد لوث الإنسان التربة والهواء وطبقات الجو العليا." أما التربة فقد لوثها بما ألقى فيها من سموم ، إما كمخصبات وأسمدة أو كمضادات للأعشاب والحشرات والآفات أو كنفيات، ولوث المياه بمخلفات المجاري والصناعة كما لوث الإنسان الهواء بعوادم السيارات والمصانع، فرفع تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو ولوثه بغازات أخرى سامة لم تكن موجودة فيه قبل، مثل أكسيد الكبريت والنتروجين الناتجة عن احتراق

<sup>1</sup> مصطفى النشار: مدخل الى فلسفة البيئة والمذاهب الايكولوجية المعاصرة، دار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة،

2015، ص 151، 153.

<sup>2</sup> عماد محمد ذياب الحفيظ: البيئة، حمايتها، تلوثها، مخاطرها؛ دار صفاء للنشر والتوزيع، ط 2، عمان، ص، ص

الوقود وعن عملية التسميد، هذه الأكاسيد هي التي تسبب فيها أصبح يسمى المطر الحمضي، كما لوث الإنسان طبقات الجو العليا وعلى وجه الخصوص غلاف الأوزون وذلك من خلال الاستعمال المتزايد لغاز " كلور فلور هيدروكربون" كغاز طارد في عبوات الرش المختلفة.<sup>1</sup>

لقد أدرك العلماء والفلاسفة حقيقة الأزمة البيئية وعلاقتها بالمعضلة التكنولوجية منذ أواخر القرن التاسع عشر، الأمر الذي أدى إلى ظهور ما يعرف "بفلسفة البيئة"، وإذا كان علماء البيئة والحركات البيئية تنظر إليه من منظور إنساني شامل يحاول الحفاظ على حقوق الإنسان وحقوق الكائنات الحية الأخرى دون الإضرار الشامل بالبيئة والحد من الأخطار المهددة للوجود الإنساني نفسه، ويمكن القول أن الفرق بين علم البيئة وفلسفة البيئة هو ذاته الفرق بين الفلسفة والعلم كما أورد في ذلك مصطفى النشار: " فبينما العلم دراسة وصفية لظواهر جزئية ويقف عند حدود تفسير الظواهر وتقنياتها فإن الفلسفة هي دراسة لما ينبغي أن يكون لإدراك جوهر الظواهر الجزئية وإدراك المبادئ الكلية الكامنة خلفها والتي ما إن يدركها الإنسان حتى يستطيع إدراك الحلول الشاملة لمثل هذه الظواهر الجزئية عن طريق العلوم كل في مجال تخصصه."؛ ففلاسفة البيئة أدركوا بحق أن مشكلة البيئة هي الإنسان، وأن المشكلة لها أبعادها الأخلاقية والنفسية، كما أن لها أبعادها العلمية المؤثرة على اتجاهات التقدم العلمي في المستقبل، ومن هنا ظهرت الحاجة ليس فقط إلى علم البيئة بل أيضاً إلى ظهور الفلسفة البيئية، ففلسفة البيئة كما أورد في ذلك مصطفى النشار: "هي فرع من الفلسفة الذي يختص بدراسة البيئة الطبيعية، ومكانة الإنسان فيها." بمعنى أن فلسفة البيئة أصبحت جزء من الفلسفة ذاتها، متخذاً في ذلك الإنسان كعنصر فعال داخل هذه البيئة وتشمل فلسفة البيئة على:

✓ أخلاقيات البيئة

✓ جماليات البيئة

<sup>1</sup>نعمة الله عيسى: الانسان والبيئة، دار المنهل اللبناني، ط 1، لبنان، 2002، ص - ص 175 - 178.

✓ السنوية الايكولوجية

✓ لاهوت البيئة<sup>1</sup>

وإذا ركزنا الحديث عن فلسفة البيئة فإنها يمكن أن تنقسم بحسب رؤية مايكل زيمرنان إلى ثلاثة حقول رئيسية :

### 1. الأخلاق البيئية أو الإطيقا الايكولوجية ( البيئية): كما يحلو لكتاب قاموس الأخلاق

الصادر عن دار التقدم بموسكو تسميتها، وهو تيار ضمن الفلسفة الأخلاقية المعاصرة بدأ يتشكل منذ اواسط السبعينيات من القرن 20 في إطار دراسة أسباب وعواقب الأزمة البيئية، ويؤكد أتباعه أنه "لن يحصل تقدم في إنهاء الأزمة البيئية إلا إذا حدث تحد للمعايير الاخلاقية للمركزية البشرية ووسعنا قاعدة الاعتبارية الخلقية لتشمل الكائنات غير البشرية". أي ضرورة التركيز على الجانب الأخلاقي في التعاملات البيئية.

### 2. الأيكولوجيا الجذرية ( او العقيمة): وهو تيار ضمن الفلسفة الاخلاقية المعاصرة يسبح ضد

تيار الثقافة السائدة، ويعتبر هؤلاء الفلاسفة أنفسهم جذريين لسببين على الأقل هما:

✓ أولاً: لأنهم يزعمون أن تحليلاتهم تكشف عن الأصول الثقافية والسياسية والاجتماعية والموضوعية للأزمة البيئية.

✓ ثانياً: لأنهم يحاجون بأنه يمكن فقط عن طريق ثورة أو انزياح ثقافي في النموذج الإرشادي يمكن إنقاذ كوكب الأرض من الخراب البيئي .

✓ أخلاق المسؤولية: ولقد تبلور هذا الاتجاه لدى هانز جونس من خلال دعوته إلى

ما أطلق عليه في كتاب يحمل نفس العنوان " مبدأ المسؤولية" حيث نبه في هذا

الكتاب إلى خطورة التكنولوجيا الحديثة التي وسعت من نطاق هيمنة وسيطرة الإنسان

على الطبيعة؛ ومن هنا جاءت تحذيرات يونس من واقع ما دعاه

<sup>1</sup>مصطفى النشار: مرجع سابق، ص 58.

المسؤولية الأخلاقية من إفراط في استغلال موارد الطبيعة، وقد جاءت تحذيراته في صورة تساؤلات أخلاقية مثل: هل تستمر الطبيعة في التسامح مع العقل البشري؟ أم هل يجب أن تمحو العقل البشري؟ لأنها وجدت أنه مدمر للطبيعة والنظام الطبيعي؟ وهل يكون السلام ممكنا عندما تكون الحرب هي القانون الذي يحكم العلاقة بين الاثنين؟ وعليه يمكن القول حسب تعبير مصطفى النشار: "أن الاخلاق البيئية هي أهم التيارات الفلسفية المعاصرة نظرا لأنها تحاول تجاوز الاشكاليات التقليدية في المذاهب الأخلاقية الأخرى." وهي الإشكالية التي ارتبطت دائما بالإنسان في علاقته بغيره من البشر؛ بينما الأخلاق البيئية هي على حد تعبير أحد دعائها ألدوليوبولد "أخلاق تبحث في علاقة الانسان بالأرض والحيوان والنباتات التي تنمو عليها"، وبمعنى البحث عن الارتباط الجوهرى فيما بين أهم العناصر التي تتشكل منها البيئة ، إنسان حيوان نبات، ويوجه عام فإن هذا التيار الجديد من الفلسفة الأخلاقية البيئية بدأ يتشكل منذ أواسط السبعينيات من ق 20 في إطار دراسة أسباب وعواقب أزمة البيئة، والتفتيش عن أساليب مقبولة إجتماعيا للخروج منها، وأنصار هذا الاتجاه قلقون لما لتأثير الإنسان على البيئة المأهولة من عواقب سلبية، ويشككون في إمكانية التقدم اللاحق للحضارة الإنسانية والمحافظة على البيئة، حتى وفي بقاء الناس ككائنات بيولوجية ، وتتناول كمثال أهم الفلاسفة الذين اهتموا بمشكلة البيئة ألا وهو الفيلسوف الالمانى هانس يوناس ولقد عرف هذا الأخير بأخلاق المسؤولية، وهو يرى "بأن الإنسان هو الكائن الحي الأكثر وعيا والأكثر إدراكا، فالإنسان هو الموجود الوحيد المعروف بأنه يستطيع أن يدرك المسؤولية".<sup>1</sup>

ومن ثم فعليه تقع تبعاتها وتحملها، وهذا مما يفرض على الإنسان الالتزام الخلقى ولقد أورد في ذلك مصطفى النشار شارحا موقف هانس يوناس: "إن أفعال الإنسان وممارسته الآن قد شكلت إرهاقا متناميا للطبيعة والبيئة، بل أصبحت تهدد حتى ما هو إنساني، ومن هنا

<sup>1</sup>مصطفىالنشار: مرجع سابق، ص 105.



أصبحت القوة التكنولوجية المتنامية للإنسان هي ما تدفع بالمسؤولية اليوم إلى قلب النظرية الأخلاقية". ولا يتوقف يوناس عند المناداة بأن تكون المسؤولية هي قلب النظرية الأخلاقية حيث ينبغي أن يكون الإنسان بتقدمه التكنولوجي وتدخله السافر في البيئة مسؤولاً مسؤولية حقيقية وليست مسؤولية صورية عن أفعاله الحاضرة في البيئة الطبيعية، التي لم ولن تكون ملكية خاصة له وحده.<sup>1</sup>

وقد تميزت أخلاق المسؤولية عند يوناس بالمناداة بأنها ينبغي أن تكون كذلك أخلاقاً للمستقبل، ومن ثم الدفاع عنه والدفاع عن مصلحة الأجيال القادمة، ولقد أورد مصطفى النشار في موقفه من هانس يوناس: " إن قوتنا البشرية لم تعد تؤثر على الإنسان الحالي فقط، بل تؤثر أيضاً على مستقبل كوكبنا الأرضي بأكمله إن هذه المسؤولية إزاء المستقبل لم تعد قضية اختيار، بل صارت حسب قدرنا مفروضاً علينا ينبغي أن نتحمله نظير أفعالنا اليومية التي أصبحت ذات تأثير واسع وبعيد المدى". بمعنى أن الإنسان أصبح يشكل خطر على ذاته وعلى البشرية جمعاء، لذلك لا بد عليه من تحمل المسؤولية التي أصبحت مفروضة عليه متحماً في ذلك نتيجة أفعاله، هاته الأفعال التي أصبحت عامل تدمير بدلاً منه تعمير، ومن هنا تبرز مسؤولية جميع البشر للتماسك من خلال شعورهم بالذنب المشترك من نتائج أفعالهم، ولهذا التماسك غرض أكثر من الشعور بالمسؤولية الأخلاقية إزاء أفعالنا الحاضرة التي لا يتوقف تأثيرها عند الحاضر بل ستؤثر في المستقبل، ولقد نادى هانس يوناس بحقوق الأجيال المستقبلية، فالأجيال القادمة لها حق علينا كما لها حق في هذه البيئة، فنحن اليوم مسؤولون على ما سيؤثر عليهم بالسلب، وعلى الرغم من أن البعض يتحجج بأن هذه الأجيال لم تأتي بعد ولا يحق لنا الحديث على حقوق أشخاص لم يأتوا بعد إلا أن يوناس يؤكد هذه الحقوق ليس فقط من المسؤولية

<sup>1</sup> مصطفى النشار: مرجع نفسه: ص، ص ، 106.

الأبوية تجاه هذه الأجيال، بل أيضا من الواجب الطبيعي المتأصل في الإنسان تجاه هذه الأجيال، إذ ينبغي على المرء دائما أن لا يتصرف بطريقة تجعل من نتائج أفعاله تدميرا للأسس كرامة الحياة الإنسانية في المستقبل ويتوافق من يونس في هذه الرؤية العديد من الفلاسفة، لعل أهمهم رولزجون الفيلسوف الأمريكي الشهير صاحب كتاب نظرية للعدالة حيث يدعونا إلى إقامة عدالة بين الأجيال، وتستند رؤية رولز لحقوق الأجيال القادمة إلى حسب ما أورده مصطفى النشار: "بأنه إذا كان من حق الناس إنتاج المزيد من الخيرات لتحسين ظروف حياتهم فلا ينبغي أن ينتقض هذا الحق من حق آخرين في تحسين ظروف حياتهم." بمعنى أنه إذا كان للإنسان الحق بالتمتع بخيرات الطبيعة فلا يحق له التجاوز على حقوق الأجيال القادمة ورائه ، وانطلاقا من هذه الرؤية واعتمادا على ما سبق ظهرت العديد من المؤتمرات العالمية كان من أولها مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة الانسانية الذي عقد في عاصمة السويد 1972، هذا الوضع المأساوي الذي وصلت إليه البيئة دفعت بالإنسان الى إعادة التفكير بالأخلاقيات البيئية محاولا تغيير نظرية وسياسة تجاهها هذا ما أدى إلى ظهور ما يعرف بالإصحاح البيئي.<sup>1</sup>

يعد الإصحاح البيئي أو ضمان صحة البيئة من السبل ذات الأهمية في مواجهة جرائم البيئية والحد منها، وهذا الإصحاح البيئي يعد الأداة الآمنة لمواجهة الكوارث البيئية والصحية المختلفة والحرب الشاملة على وجه الخصوص: " المقصود بالإصحاح البيئي او صحة البيئة وجود الانسان والكائنات الحية الاخرى في بيئة تتوفر فيها متطلبات العيش الضرورية من موارد بيئية وطبيعية خالية من أسباب التلوث البيئي." ونظرا للإرهاب العالمي والتوجه لتطوير وإنتاج أسلحة الدمار الشامل، فإن مفهوم الإصحاح البيئي قد تطور في الوقت الراهن في العديد من دول العالم ليصبح الاساس الهام في مكافحة جرائم البيئة.

<sup>1</sup>مصطفى النشار: مرجع السابق، ص، ص 107، 108.

ويرافق الإصحاح البيئي العديد من المتطلبات الأخرى ذات الأهمية الخاصة لمواجهة جرائم البيئة وفي مقدمتها الإعلام التوعوي المنطلق من الاسس والبرامج العلمية ذات الأهداف التطبيقية، ويجب أن تنطلق تعاليم الإصحاح البيئي من مراحل التعليم المختلفة لزرع حب البيئة والحفاظ عليها عند الفرد منذ الصغر، ولذلك فإن هناك العديد من متطلبات الإصحاح البيئي ومن أهمها التوعية البيئية والتنظيف البيئي والتأهيل والتدريب ووضع البرامج والخطط الخاصة بالبيئة، وحث تكثيف الدراسات والابحاث التطبيقية في مجال الإصحاح البيئي والاستفادة من مخرجات التعليم بإدخال المقررات البيئية المختلفة والحاجة ماسة في الوقت الراهن إلى التأكيد على أن المسؤولية الأخلاقية ذات أثر فعال في الحفاظ على البيئة والحد من الجرائم البيئية، والتأكيد على أن البيئة تلبى حاجة الانسان في الوقت الراهن ودون الاخلال بمواردها مما يؤدي إلى عدم تلبية متطلبات الاجيال القادمة وأن البيئة ملك للجميع<sup>1</sup>

### أ. الفيزياء النووية:

مما لا شك فيه أن البحث عن المعرفة وينابيعها وفروعها المختلفة كان له جذوره الضاربة في القدم، فمع بداية تشكل الحضارات بمنظومتها الثقافية والفكرية وتزامنها مع بداية التجمعات البشرية وظهور الحاجة الماسة إلى استعمال الآلات والأدوات الخاصة بالعمل لإرضاء الرغبات والحاجات الإنسانية، ظهرت الحاجة الملحة للمعرفة ومن المؤكد لدى الكثيرين أن المعرفة الأولى نشأت بسيطة وساذجة ومحدودة، نظراً لمحدودية المعارف والعلوم التي كشفها الإنسان آنذاك فبدأ يبحث في الظواهر التي تثير انتباهه ودهشته وتوجد في نفسه الخيفة وأخذ يعلها بتفسيرات غيبية، ومن ثم تطورت هذه المعارف ذات الطابع الأسطوري الخيالي شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت قائمة على أساس الملاحظة والتجربة الحسية المباشرة، فقادته هذه الملاحظات إلى وضع وصياغة نظريات مهمة ساعدت في تقدم العلم نحو الأمام في العصور المتلاحقة، ومن بين هذه المعارف والنظريات؛ النظرية الذرية للمادة والتي

<sup>1</sup> عبد الوهاب بن رجب هاشم بن صادق: جرائم البيئة وسبل المواجهة، مركز الدراسات والبحوث، ط 1، الرياض، 2006،

ظهرت أصولها الأولى في الفكر اليوناني القديم ثم تطورت في العصر الحديث وفي القرن 20 وإلى غاية عصرنا الحالي ولا تزال في تطور مستمر.<sup>1</sup>

حيث شاهد العالم تغيير في نظام حياة الإنسانية وذلك عندما طغت الغريزة على العقل البشري فيما أن الإنسان وحسب تعريف أرسطو له "هو كائن حي أناني محب للسيطرة" فقد جعل من التقدم التكنولوجي وسيلة لتحقيق رغباته ومن هنا أصبحت تستخدم التقنية فيما لا يتطابق مع القيم والأخلاق الإنسانية، فتحول ذلك التقدم التكنولوجي من وسيلة غايتها تحقيق منفعة عامة إلى وسيلة تهدد تاريخ البشرية ككل ووجودها ذلك نتيجة انفصال التقنية عن القيم الإنسانية ومنه ظهر الجانب السلبي لهذا التقدم العلمي ويقول في هذا المجال هابرماس: "لعل أبلغ حالة في هذا المضمار ما نشاهده في الفيزياء النووية حيث الاجهزة التقنية المستعملة من طرف الملاحظين في التجربة ما تحدد كل مرة ما يمكن او لا يمكن ملامسته من التظاهرات النووية"<sup>2</sup>

ونجد هاربرت ماركيز هو الآخر إعتبر أن تطور العلم قد أدى إلى تغيير جذري في حياة الإنسان أكد على ذلك من خلال قوله: " إن إمكانيات المجتمع الصناعي المتقدم والقوى الانتاجية العليا التي يتمتع بها بفضل التقدم التكنولوجي الهائل وتطبيق ما يسمى بالأتمتة على نطاق واسع يجعلنا نقول أن ذلك سيسمح لنا بتحقيق تغيير جذري في مضمون الغايات والقيم بل وفي نمط الحياة المختلفة عما هو سائد في الحضارة السابقة"<sup>3</sup>

فقد أدى تقدم تقنياتنا المذهل والطوعية والدقة اللتان توصلت إليهما بالإضافة إلى العادات والأفكار التي أوجدتها وقوع تغييرات عميقة في حياة الإنسان، إذ يستحيل اليوم أن نرى إلى

<sup>1</sup> عادة عبد الستار مهدي: فلسفة فيزياء الدقائق المضادة للمادة وأثارها العلمية الاجتماعية، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، قسم فلسفة، العدد 99، ص 542.

<sup>2</sup> يورغن هابرماس: النظرية النقدية التواصلية، ترجمة: حسن مصدق، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 2005، ص 100.

<sup>3</sup> هيربرت ماركيز: الحب والحضارة؛ ترجمة مطاع صفدي، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط2، لبنان، 2007، ص 10.

المادة والمكان والزمان كما كان يحدث في الماضي فلقد انفلت العالم إلى أشكال ممزقة من المعاني ما أدى إلى فقدان قابليتها لتنظيم حياة الناس وإعطاءها معنى، حيث دخلت الدقائق الذرية ميادين شتى منها ميدان علم الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا والكهرباء والضوء والطاقة والاشعاع والميدان العسكري أيضا.<sup>1</sup>

ومن هنا دخلت التقنية مجال الفيزياء النووية والكيمياء، فأطلق عنان عدوان الإنسان على أخيه الإنسان حينما برع في اختراع القنابل الذرية والهيدروجينية، والتسلح الجرثومي فبرزت النظرة التشاؤمية تجاه مصير الإنسان، ويعود القول بأن الفيزياء النووية قد ظهرت حوالي سنة 1900م باكتشاف خاصية النشاط الإشعاعي ونواة الذرة وهي فرع من فروع الفيزياء يدرس خواص النويات الذرية وتركيبها وتفاعلاتها ولها أهمية خاصة في إنتاج الطاقة واستهلاكها وللطاقة المنتجة من تفاعلات النووية استخدامات عديدة منها:

✓ الاستخدامات السلمية: كتوليد الكهرباء، الطب النووي الذي يستخدم كميات صغيرة من مواد المشعة لتشخيص أو علاج الأمراض، الزراعة، البحث عن المعادن في باطن الأرض.

✓ الاستخدامات العسكرية: كإنتاج القنابل الذرية، والهيدروجينية الذي بدأ في الإتحاد السوفياتي سنة 1940.<sup>2</sup>

ومن هنا نشأ المأزق الذي تواجهه البشرية اليوم كالحاجة إلى كم أكبر من الطاقة و من المصادر التي نعتمدها في الحياة اليومية وإن نجاح الإنسان أو فشله في إيجاد حل لهذا المأزق سيقدر مستقبل الإنسانية، فهل نحن مستعدون لتغيير نمط حياتنا والعيش في ظل

<sup>1</sup> غادة عبد الستار: فلسفة فيزياء الدقائق المضادة للمادة وأثارها العلمية الاجتماعية، مرجع سابق، ص 542.

<sup>2</sup> دوارد س كاسيدي، بيتر غروسمان: مدخل إلى الطاقة المصادر والتكنولوجيا والمجتمع، ترجمة صباح مذيق الدمولوجي، سلسلة كتب تقنية الاستراتيجية، ص 252.

هذه الظروف؟ ومن هنا لاحظ عدد من الفلاسفة أن استخدامنا للطاقة والتطور العلمي قد حملت معها مترتبات أخلاقية متغيرة وغير ثابتة.

### تطور النظرية العلمية في مجال الفيزياء والكيمياء عبر العصور:

إن الفكر اليوناني القديم اختلف عن حضارات الشرق القديم بنظرته العلمية، النظرية القائمة على الطابع الفلسفي التأملي، فالمعروف عن هذه الحضارات أنها كانت تتمسك بالمعارف التي ينطق بها رجال الدين والكهنة أو رؤساء القبائل إضافة إلى تعلقها بالأساطير والفكر الميثولوجي الخرافي، ولم تكن لديهم أية نظرة علمية واضحة محددة وسبب ذلك يعود إلى سيادة وهيمنة العنصر الصوفي والخرافي الذي خيم في سماء تلك الحضارات، لكن العامل الحاسم والأساسي الذي ساهم في إنقاذ اليونان من الوقوع في شباك هذا العنصر هو ظهور المدارس العلمية في أيونية، إذ نجد أن معظم الفلاسفة اليونان كانوا من العلماء أو أنهم تمكنوا من الجمع بين العلم والفلسفة في آن واحد، فقد كانت لديهم نظريات واكتشافات علمية في غاية الأهمية، فهم أول من قالوا بالنظرية المادية والأصل المادي الذري للأشياء في تحليلهم للأجسام المادية، وقالوا أيضا بالنظرية التطورية بمفهومها البسيط والانتخاب الطبيعي وفق مبدأ النشوء والارتقاء الذي يجعل بقاء الكائنات الحية متعلقا بقدرتها وصلاحيتها لبيئتها.<sup>1</sup>

ويمكن القول بأن الفترة التي سبقت سقراط هي الفترة التي تمثل حجر الأساس الذي ارتكزت عليه الفلسفة اليونانية بأسرها وتاريخ العلم على حد سواء، وتعتبر الفترة التي شهدت ظهور نظريات وإنجازات علمية عظيمة الشأن كان لها صداها البالغ في الميدان العلمي وأثرها الكبير والمذهل في تقدمه وتطوره نحو الأمام، ومنها النظرية الذرية في الفيزياء؛ فقد كان الأساس الجوهرية للنظرية الذرية بطابعها الفلسفي القديم كانت من ابتكار "لوقيبوس"، أما تلميذه "ديمقريطس" فقد طبقها وتوسع فيها وعرض جميع تفاصيلها وجعل منها أشهر نظرية

<sup>1</sup> هانز راينشباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت،

طبيعية في ذلك الوقت، إذ قامت هذه النظرية على أساس المادة الاصلية وهي الفكرة التي نادى بها من قبل فلاسفة أيونية الطبيعيون، والذين عرفوا بفلاسفة المادة الحية أمثال "هيلوزوست" وعلى هذا الأساس إنطلق لوقيبوس مصرحا: "بأن المادة التي تدخل في تركيب وبناء العالم مؤلفة من عدد لا نهائي من الذرات." والذرة طبقا للوقيبوس: "هي جزء صغير من المادة يتعذر شطره أو تجزئته إلى جزيئات صغيرة." وقد طور ديمقريطس فكرة أستاذه عن الذرة بحيث أصبحت قريبة جدا من المفهوم الذري الحديث، خاصة عندما إعتقد: "أنه من الممكن تقديم تفسير مقنع بشأن الخصائص الفيزيائية للمادة كقابليتها على التجزئة والانقسام والانضغاط في حال افتراضنا أن المادة تتألف من جزيئات صغيرة." فضغط مادة ما يعني زيادة بين عدد الذرات المتقاربة، وتمتاز هذه الذرات لانهاية العدد وصلبة ولا يمكن أن يطرأ عليها أي تغيير كفي فحجمها يبقى على ما هو عليه لذا يطلق عليها اسم اللامنقسمات.<sup>1</sup> ثم ذهبت هذه النظرية إلى أبيقور ومنه يمكن أن نقول: "أن الاتجاهات الفكرية والعلمية للمذهب الذري المادي الطبيعي ومعارضته للتفسيرات والممارسات الخرافية والغيبية وتجرده من النظرة الميتافيزيقية البعيدة عن الواقع الحسي الملموس جعلته مختلفا عن المدارس الفلسفية." وقد حظيت النظرية الذرية بتقدير واحترام الطبقات العليا في أوائل حكم الامبراطورية الرومانية وقد امتد فيما بعد تأثير هذه النظرية الذرية في العصور المتلاحقة بعد أن تمكن العلماء من تجريدها من طابعها التأملي الفلسفي وغرسها في أرض جديدة ذات طابع علمي.<sup>2</sup>

وفي العصور الوسطى نجد أن النظرية الذرية قد اختفت بالكامل بالنسبة لأوروبا فقد ظلت في طي النسيان، ولم تتبع من جديد إلا مع العالم "جاسندي" 1592-1655. فقد استعان بالتفسير الذري لمعرفة أسرار التكتلات المادية بحالاتها المختلفة ومن هنا بدأت هذه في

<sup>1</sup> غادة عبد الستار: مرجع سابق، ص 549.

<sup>2</sup> المرجع نفسه: ص 550.

النظرية تدخل الميدان العلمي والتكنولوجي ،حينما أخذ العلماء يعملون بها ومن أشهر ممثلي الذرية في العصر الحديث هم : " ديكارت، غاليليو، برونو، بويل هنجنس، نيوتن، ديدرو، موبرتوي." ثم جاء العالم الفيزيائي الدنماركي "نيلز بوز" وقام بتطبيق للكوانتم إذ دفعته الدراسات التي قام بها حول تركيب الذرة إلى دمج وتوحيد النظرية الذرية لتمهيد فيما بعد لقضايا الانشطار الذري والنووي الإشعاعي، هذا الانشطار النووي الذي يعود إكتشافه من قبل العالم الكيميائي "أوتوهان" و "ستراسمان" في برلين عام 1939 عندما قام هذان العالمان بقصف وتسليط مجموعة من النيوترونات الحرارية على نواة اليورانيوم مما أدى إلى انقسام هذه النواة الثقيلة إلى نوى عناصر متوسطة الكتلة وقد تمكنوا من التعرف على نواتج علمية التفاعل النووي؛ وقد فطن علماء الفيزياء والكيمياء إلى أهمية هذا الاكتشاف وأثره البالغ على مستقبل البشرية وما هي نتائجه الناجمة سواء منها السلبية والإيجابية؟<sup>1</sup>

<sup>1</sup>غادة عبد الستار: مرجع سابق، ص ص 552-557.



# الفصل الثاني:

أزمة المجتمع الصناعي

الغربي المعاصر

## تأسيس مدرسة فرانكفورت وأهم روادها :

تمثل مدرسة فرانكفورت ظاهرة مركبة، وقد جرى شرح وتفسير نمط الفكر الاجتماعي الذي ارتبط بها في المقام الأول، أي النظرية النقدية بطرق شتى، والأساس التنظيمي الذي تطورت فيه هذه المدرسة بناء عليه هو معهد البحوث الاجتماعية، الذي أنشئ رسمياً بتاريخ 3 فبراير من عام 1923، بموجب مرسوم من وزارة التعليم قضى بإلحاقه ضمن جامعة فرانكفورت. و افتتح رسمياً في يونيو 1924، وتكون كحلقة فكرية أو حركة طلابية، عبر المناقشات الجماعية لمؤسسيه، ممن شكلوا إحدى فصائل الموجة الراديكالية، وعاشوا صعود اليسار الألماني وانتكاسته وتشاركوا في هم رفض المشروع الثقافي الغربي، ورجبوا في القيام بنقد جذري لعصرهم.<sup>1</sup>

وكان المخططون الرئيسيون وراء هذا التأسيس لما كان يعد - في تلك الأيام معهداً فريداً من نوعه، هم فيليكس قايل ( 1898 )، فريدريش بولوك ( 1894-1970 )، ماكس هوركهايمر، تيودور ادورنو. وكان قايل ووالده هرمان قايل وهو رجل أعمال كبير يتولي الأمور المالية لإقامة المبنى للمدرسة وللانفاق على هيئة أساتذته ودفع رواتبهم؛ كانت بداية هذا المشروع عندما قدم فيليكس قايل مذكرة حول إنشاء معهد للبحث الاجتماعي، سنة 1922 خلال تنظيمه لأسبوع خاص بتقديم الأعمال الماركسية.<sup>2</sup>

وقد جرى إنشاء المعهد في الظروف الخاصة التي خلفها اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقيام الثورة البلشفية في روسيا وانتكاسة ثورات وسط أوروبا ، وضمناً في ألمانيا وعدم نجاح الحركات الاشتراكية الراديكالية في أوروبا الغربية وظهور الستالينية في الاتحاد السوفيتي، والنظم الفاشية والنازية في إيطاليا وألمانيا، وهيمنة النظم الرأسمالية وتعزيز سيطرتها

<sup>1</sup> توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت، ترجمة سعد هجرس، دار اويا للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، ليبيا، 2004، ص- ص 16-37.

<sup>2</sup> فيل شليتر: مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها، ترجمة: خليل كلفت، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 2004، ص 21.

الاقتصادية والأيدولوجية، خاصة بعد خروجها من الأزمة الاقتصادية الطاحنة ويمكن النظر إلى هذا المعهد على أنه أحد أشكال الاستجابة للحاجة التي استشعرها الجناح اليساري من المثقفين نحو إعادة تقويم النظرية الماركسية.<sup>1</sup>

يلاحظ **مارتن جاي** أن فكرة إنشاء مدرسة متميزة لم يظهر إلا بعد إجبار المعهد على مغادرة مدينة فرانكفورت؛ بل إن مصطلح (**مدرسة فرانكفورت**) نفسه لم يستخدم إلا بعد عودة المعهد إلى ألمانيا عام 1950، ويعود سبب إغلاق المعهد في ألمانيا بسبب إستيلاء **هتلر** على الحكم فصودرت مكتبته وغادر أعضاؤه، إلى بعض العواصم الأوروبية، وأنشئوا فرعاً له في جنيف أطلقوا عليه اسم **المؤسسة العالمية للبحث الاجتماعي** وكونوا له إدارة جماعية، إضافة إلى فرعين آخرين له في لندن وباريس؛ وبسبب التوسع النازي، اضطر هؤلاء المفكرين ثانية إلى مغادرة أوروبا عام 1934، متوجهين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ونقلوا معهم المعهد إلى نيويورك باسم **المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي**، ليستقر بعد ذلك في الحرم الجامعي لجامعة كولومبيا. ثم انتقلوا إلى لوس أنجلوس؛ ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية وغروب النظم الفاشية والنازية، بدأوا تحليلاً جدياً للمجتمع الرأسمالي، الذي رأوا نمط صعوده الجديد في الولايات المتحدة، خاصة مع تنامي المعجزة الاقتصادية التي كونت رأسمالية قوية حالت دون فاعلية الطبقة العاملة في تحقيق أهدافها، ما فسر توجه بحوث المدرسة إلى قضايا عديدة في المجتمع كقضية السيطرة الشاملة، القضاء على قيمة الفردية، القهر التقني، صناعة الثقافة.<sup>2</sup> قبل التكوين الرسمي للمعهد، رأس **كيرت جيرلاخ** هذا التجمع الفكري لكنه توفي قبل افتتاحه بقليل، فاختير **كارل جرونبرج** وهو مؤرخ اقتصادي واجتماعي لإدارته ما بين 1923-1929،

<sup>1</sup> توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 19.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص، ص 18، 19.

حيث كرس أعمال المدرسة وتوجيهات البحوث نحو الأعمال الماركسية والأرثوذكسية وفي يناير 1931 خلفه هوركايمر، وانظم إليه معظم المفكرين المشهورين فيما بعد إريك فروم، هيرت ماركيز، تيودور أدورنو<sup>1</sup> ومن هنا يمكن التمييز بين أربع مراحل واضحة المعالم لتاريخ المعهد أو مدرسة فرانكفورت وهي:

المرحلة الأولى: 1923-1933 حيث كانت البحوث المنوطة بالمعهد متنوعة ولم يكن المعهد يستوحي أثناءها مفهوماً معيناً للفكر الماركسي كما تجسد بعدها في النظرية النقدية، فقد كانت سيمة المعهد سمة إمبريقية بقوة.

المرحلة الثانية: 1933-1950 وهي مرحلة المنفى في أمريكا الشمالية حيث ترسخت أعمال النظرية النقدية الهيكلية الجديدة، وكانت مع هوركايمر وتميزت بنقد الوضعية والتأثير الاديولوجي للعلم والتكنولوجيا.

المرحلة الثالثة: اهتموا بجل القضايا الثقافية المختلفة ومحاوّر الحياة اليومية المتباينة، بوصفها حلقات جديدة يتم بواسطتها السيطرة على الإنسان من قبل النظم المتقدمة.

المرحلة الرابعة: تتحدد بانتهاء الحرب العالمية الثانية، وعودة المعهد إلى فرانكفورت حيث بدأت المدرسة تمارس تأثيراً مهماً على الفكر في أوروبا والولايات المتحدة، وتثير حماس في حركات الشباب التي تفجرت نهاية الستينيات، ومع زيادة اهتمامها بالتسلط والهيمنة ونقد النظم السياسية والاقتصادية والثقافية خاصة في المجتمعات الرأسمالية.<sup>2</sup> ولكنها عاودت الظهور في السبعينيات مع محطة جديدة يجسدها هابرماس يورجن الذي حاول بلورت مشروع جديد للتنوير والعقلانية الأوروبية، و يستعيد أفكار عصر التنوير

<sup>1</sup> توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 24.

<sup>2</sup> المرجع نفسه: ص 17.

الأولى التي استأصلها النظام الغربي وسحقها.<sup>1</sup>

### من أهم رواد مدرسة فرانكفورت:

تنظم المدرسة عددا من الفلاسفة والنقاد والأدبيين وعلماء المجتمع والنفوس والاقتصاد والسياسة أبرزهم:

**ماكس هوركايمر:** ولد سنة 1895 توفي 1973، يعتبر مؤسس المدرسة النقدية من أهم مؤلفاته ECLIOSE OF REASON و CRITICAL THEORY.

**تيودور أدورنو:** ولد عام 1903 توفي عام 1969، كانت حياته حافلة بالإنجازات أهمها تلك التي ظهرت بعد تنقله إلى الولايات المتحدة وانضمامه إلى فريق جامعة كولومبيا وتحت ضغط الحاجة المادية والمنافسة الشديدة اضطر أدورنو إلى انجاز بعض الأعمال التي كان يعرضها عليه معهد البحوث الذي كان يشرف عليه الماركسي النمساوي بول ف. لازار سفيلد.

**ألتر بنجامين:** ولد سنة 1892 وهو كاتب وناقد أدبي ألماني ذو أصول يهودية ومنظر ماركسي في علم الجمال، وانتحر مع بداية الغزو الألماني إلى فرنسا سنة 1940، من مؤلفاته كتاب المؤلف كمنتج صدر سنة 1934.<sup>2</sup>

**أريك فروم:** ولد سنة 1900 توفي 1980، وهو محلل نفساني ذو أصول ألمانية، حاول توظيف المنهج التحليلي المطبق في علم النفس على الظواهر الاجتماعية والثقافية، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1934، له العديد من المؤلفات والبحوث من بينها الخوف من الحرية، الخطاب المنسي، فن الحب.

<sup>1</sup>توم بوتومور : مرجع سابق: ص 24.

<sup>2</sup> بن دريس أحمد: الفلسفة والنظرية النقدية، من كانط الى مدرسة فرانكفورت قراءة استكشافية في المنطلقات مجلة جامعة ابن رشد في هولندا، العدد الخامس، 2012، الجزائر، ص 116.

هربرت ماركيز: ولد هربرت ماركيز في برلين عام 1898 لوالدين يهوديين. وينبغي أن نذكر هذه الحقيقة ونحن نتبع مجرى تفكيره، إذ يبدو بالرغم من الاعتقاد الشائع بأنه مفكر ذو نزعة خالصة، لم يستطيع التخلص من تأثير هذا الأصل اليهودي تخلصاً تاماً. وقد درس الفلسفة في جامعة برلين ثم في فرايبورج على يد الفيلسوف الألماني الكبير "هيدجر"، وحصل من هذه الجامعة الأخيرة على الدكتوراه في الفلسفة، وكان موضوع رسالته عن أنطولوجيا هيغل وعلاقتها بالفلسفة في التاريخ. وفي الوقت ذاته، بدأ اهتمامه بالسياسة يتخذ صور تعاطف مع الحركة الديمقراطية الاشتراكية الألمانية، ولكنه انفصل عنها عام 1919، بعد مقتل الزعيمين روزا لوكسمبرج، وكارل ليبكنشت. وعلى الرغم من أنه أصبح في عام 1927 رئيساً لتحرير مجلة تدين بمبادئ هذه الحركة، هي مجلة (المجتمع)، فقد كان يقوم بهذه المهمة دون أي ارتباط فعلي بمبادئ هذا الحزب.<sup>1</sup>

بدأ تاريخ ماركيز السياسي بفترة عمله في مكتب الخدمات الإستراتيجية منذ عام 1931 وحتى الخمسينيات من القرن العشرين، حيث قام بدور مهم وكبير في تشكيل السياسة الأمريكية تجاه أوروبا الغربية، وفي عام 1933 التحق ماركيز بمعهد البحث الاجتماعي في الولايات المتحدة الأمريكية بعد مغادرته لألمانيا أثناء تولي الحكم النازي الحكم، حيث درس مسألة الدولة الليبرالية والعلاقة بين الرأسمالية الاحتكارية والفاشية وتفكيك الشيوعية، وكان للحركات الاجتماعية الجديدة دور في اغتراب المجتمع الصناعي المتقدم واحتمالاته لإمكانية التغيير عام 1968 وكان لماركيز دور أساسي في نشر المفاهيم التالية: " الوعي السعيد، الرفض العظيم، الاغتراب".<sup>2</sup>

شغل هربرت ماركيز العديد من المناصب من بينها:

<sup>1</sup> فؤاد زكريا: هربرت ماركيز، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2013، ص6.

<sup>2</sup> ستيفن اريك برونر: مقدمة قصيرة جدا النظرية النقدية، ترجمة سارة عادل، هنداوي للنشر والتوزيع، مصر 2012، ص

عضو في معهد البحوث الاجتماعية عام 1932؛ عمل في مكتب الدراسات الإستراتيجية ومكتب المخبرات التابع لوزارة الخارجية الأمريكية، عمل في المعهد الروسي بجامعة كولومبيا عام 1950؛ وبمعهد البحوث الروسية بجامعة هارفرد وفي جامع كولومبيا، وجامعة برانديس بين عامي 1954-1967؛ وأمضى بعض الوقت مديراً للبحوث بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس، ومارس التدريس منذ عام 1967 بجامعة كاليفورنيا كأستاذ للفكر السياسي لمدينة سان دييجو. إلى أن توفي.<sup>1</sup>

### من أهم المعالم التي ساهمت في بناء اتجاهاته:

انتمائه إلى أسرة يهودية، وهو الانتماء الذي ظل ماركيز متمسكاً به، ولم يحاول أن يعلن عن تحرره منه.

اتجاهه إلى التعاطف مع الحزب الديمقراطي الاشتراكي في ألمانيا، ثم إعلانه بعد ذلك استقلاله عن جميع الأحزاب.

اشتغاله لمدة طويلة في أعمال تخدم نشاط الحكومة الأمريكية المتعلق بالشؤون الروسية وشؤون أوروبا الشرقية بوجه عام.

اتخاذ الولايات المتحدة وطناً ثانياً أقام فيه منذ عام 1934، أي حوالي نصف عمره مما أتاحت له الفرصة للاطلاع على أحوال الحياة في أكثر البلاد الرأسمالية تقدماً، وزوده بمعرفة مباشرة عن طبيعة المجتمع الصناعي المتقدم<sup>2</sup>

تبلور تفكير ماركيز على يد كل من: "هيدجر، ماركس، نيتشه، فرويد" ولكن من الصعب أن نتصور كيف لتلميذ واحد أن يستوعب كل هذه المؤثرات المتعارضة ويعترف صراحة بأنه

<sup>1</sup> عمور ميسوم، غيلاس حياة: منهج التغيير السياسي عند مدرسة فرانكفورت هربرت ماركيز نموذجاً، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر في العلوم الإنسانية تخصص فلسفة سياسية، جامعة خميس مليانة، 2016/2015، ص 28.

<sup>2</sup> فؤاد زكريا: هربرت ماركيز، مرجع سابق، ص 7.

كان بالفعل تلميذاً لكل هؤلاء في آن واحد، إلا أن تأثير كل هؤلاء على ماركيز لم يمارس في وقت واحد أو في نفس الميادين، فقد كان تأثير هيجل هو الأسبق وهو الذي ظل ملازماً له حتى النهاية، وتلاه تأثير ماركس ومعه نيتشه، وفي المرحلة التالية كان تأثير فرويد وهيدجر، على حين أن ماركس و نيتشه و فرويد قد زودوه بالأسلحة اللازمة لنقد المجتمع الحديث نقداً حضارياً وإيديولوجياً<sup>1</sup>

### من أهم مؤلفاته:

اشتهر ماركيز بكتابين مهمين هما: "إيروس والحضارة"، " الإنسان ذو البعد الواحد" إضافة إلى كتاب "العقل والثورة" 1931 يستخدم ماركيز على نطاق واسع نظرية الاغتراب الهيجلية التي أخذ بها لوكاتش في المراحل الأولى من تطوره الفكري والتي تذهب إلى أن شيئية (تحول قدرات الإنسان إلى أشياء وتجسدها فيها)، وفي كتابه: "إيروس والحضارة" حاول أن يبرهن على أن ذلك الاجتماع على ضرورة مراقبة الغرائز وتنفيذ النشاط الجنسي كان تعبير عن القمع والمصالحة إدارة السيطرة، وحاول أن يقرن التحرر الغريزي بالتحرر الاجتماعي ويرفض التراث الغربي القائم على تمجيد الانتصار والغلبة على الغرائز، وحاول أن يكشف أعمال القمع في المجتمع كما اقترح البديل بصيغة جديدة يختفي فيها التناقض بين مبدأ اللذة والواقع.<sup>2</sup>

وفي كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد": فقد كانت نقطة الانطلاق في هذا الكتاب هي الطاقة التي أصبح يتمتع بها المجتمع المعاصر، أي مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة وما تحقق له هذه الطاقة من هيمنة على الفرد تتجاوز أشكال السيطرة التي يمارسها المجتمع من قبل أفرادها ومجتمع الحضارة الصناعية هذا يسير قدما نحو تحقيق التلاحم الاجتماعي، الداخلي واستبعاد كل شكل من أشكال التناقض والتجاوز، ومن هنا كان هذا المجتمع ذا

<sup>1</sup> فؤاد زكريا: مرجع نفسه: ص 11.

<sup>2</sup> جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون، المتصوفون، دار الطليعة، ط3، بيروت، 2006، ص 627.



بعد واحد، إذ يحيل الإنسان باستمرار إلى ذاته ويجرد من المعنى، ويعتقد ماركيز أن الحاجات هذا المجتمع هي حاجات وهمية من صنع الدعاية والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري وهي خير وسيلة لخلق الإنسان ذو البعد الواحد.<sup>1</sup>

من أهم الأفكار الفلسفية لماركيز تتمثل في ما يلي:

- رفض الواقع المعاش ورسم معالم جديدة
- نقد الوضعية واعتبارها فلسفة رجعية تتناقض مع منهج النظرية ومع ماركيز مما يشكل تعارض الغايات باستثناء هابرماس
- نقد الماركسية والتعرض لمختلف مفاهيمها كالتشيؤ و الاغتراب
- تأسست لديه أفكار كثيرة انطلاقاً من هيدجر في مسألة التقنية، وشيلر في الفن.

### التنوير ونقد العقل الأداي:

إن الحديث عن الحضارة الصناعية المتقدمة اليوم بات بالضرورة حديث عن الحضارة البرجوازية، التي ألت إلى الانهيار بسبب ما توصل إليه العلم من تطور في جميع الميادين ( المادية، الفكرية)؛ ومن هنا دخل الإنسان المعاصر في أزمة مع ذاته، وأصبح يعيش على شفا الهاوية، بعدما كان يعيش في وفاق مع نفسه ومع الطبيعة، عندما كان يلجأ إلى الخرافة والأسطورة لتفسير كل ما يحدث حوله، فقد كان العقل خلال هذه المرحلة يعمل تحت وصاية الآلهة والحكام، ويخضع لسيطرتهم؛ لكن هذا التفكير قد ارتقى من خلال ما توصل إليه الباحثون والعلماء في شؤون الطبيعة، خاصة بعدما تم استخدام التجربة في مفهومها المنهجي، وكانت هذه المرحلة عبارة عن بداية انفصال التفكير العلمي عن التفكير الميتافيزيقي الخرافي، وبدأ العقل يدخل في مرحلة جديدة وهي مرحلة التنوير؛ ومن هنا نطرح سؤال ما هو التنوير؟.

<sup>1</sup> فيصل عباس: موسوعة الفلاسفة، دار الفكر العربي، بيروت، 1996، ص 255.

## مفهوم التنوير:

لقد بدأ الجدل حول معنى التنوير في القرن 18 نفسه، واستمر دون توقف حتى يومنا هذا حيث شهد هذا المصطلح العديد من الترجمات من بينها aufklarung بالألمانية، lumière بالفرنسية، وغيرها من الترجمات الأخرى؛ وكانت صحيفة بريلينتشمو نانشرفت أول من طلبت من قرائها الإجابة عن سؤال ما هو التنوير؟ سنة 1783 ، ومن بين الإجابات التي أرسلت إلى الصحيفة من قبل شخصيات متمامية الاتجاهات مثل كاتب الدراما جوتولد ليسينج، والفيلسوف اليهودي موسى مند يلسون، والفيلسوف ايمانويل كانط، فقد كان التنوير بالنسبة لمنديلسون مصطلح صعب التعريف، لأنه كان يشير إلى عملية أبعد ما تكون عن الكمال في زمنه، وهي عملية تعليم الإنسان التدريب على استعمال العقل حيث كانت كلمة العقل كلمة محورية في فكر التنوير.<sup>1</sup> كما يعرف التنوير بأنه اتجاه اجتماعي سياسي فلسفي، ساد أوروبا في القرن 17، 18 ويتميز بفكرة التقدم، وعدم الثقة بالتقاليد والتفاؤل والإيمان بالعقل والدعوة إلى التفكير الذاتي، وقد حاول ممثلوه أن يصححوا نقائص المجتمع القائم ، وأن يغيروا أخلاقياته وأساليبه وسياسته وأسلوبه في الحياة بنشر آراء في الخير والعدالة والمعرفة العلمية<sup>2</sup>، من بين ممثليه: كانط، فولتير، جون جاك روسو، مونتيسكيو، ديدرو، شلر، جوته... الخ، حيث قد شاركوا في النضال ضد الإقطاع وايدولوجية وفي التغلب على نفوذ الكنيسة، وعلى مناهج التفكير المدرسة التي كانت سائدة وقتذاك في أوروبا، وكانت لأفكارهم تأثير في الاشتراكيين الطوباويين، ولا شك أن أفكار التنوير لم تأت من فراغ فلقد ارتبطت بعوامل موضوعية مثلتها التحولات العلمية والصناعية الكبرى التي عرفها تاريخ الإنسانية لأول مرة وصحبتها قاعدة تغيير في طبيعة

<sup>1</sup> دوريندا أوترام: التنوير، ترجمة: ماجد مورييس ابراهيم، دارالفاربي للنشر والطباعة، ط1، بيروت، 2008، ص، ص 53، 54.

<sup>2</sup> كمال بومنيير: جدل العقلانية ، مرجع سابق ، ص 19 .

الإنتاج والتسويق والعلاقات الاجتماعية الناجمة عن تغيرات الطبقة.<sup>1</sup> وكذلك الأمر بالنسبة لكانط الذي اعتبر أن التنوير هو تحرر الفرد من الوصاية التي جلبها لنفسه والوصاية هي عدم قدرة الفرد على استخدام فهمه الخاص، دون توجيه من الآخر وليس القصور العقلي سببا في جلب الوصاية بل السبب انعدام الإقدام والشجاعة، على استخدامه أي العقل دون توجيه من الآخر ويقوم التنوير على شعار خاص الذي يقول: " فلتنك لديك الشجاعة لاستخدام عقلك الخاص"<sup>2</sup> وكما اعتبر التنوير على مر الزمن وبالمعنى العريض تعبيراً عن الأرض التي تنورت فهي أرض تشع بشكل يوحي بالانتصار. ومن المعلوم أن فلسفة التنوير قد قامت على خطاب مرجعيته العقلانية والحرية والتقدم، وهي القيم التي شكلت المشروع الحضاري والثقافي الغربي، وبشرت بتحرير الإنسان من مختلف أشكال الاستعباد وتحقيق سعادته بواسطة المعرفة، وبالخصوص المعرفة العلمية التي اعتبرت بمثابة الموجه لكل نشاطاته وفاعليته قصد الخروج به من وضعه السلبي.<sup>3</sup>

لم تكن عملية التنوير مقصورة على أوروبا فقط أو على فرنسا بالتحديد، ولكنها كانت تتم على نحو موازي في أمريكا، إذ تبنت الثورة الأمريكية شعار "الحياة والحرية والسعادة" لم يكن هذا التنوير مجرد فترة وانتهت لكنه كان عملية متواصلة من أعمال العقل للإجابة على المستجدات والإشكاليات التي طالما شغلت تفكير الإنسان من قبل.<sup>4</sup>

<sup>1</sup>توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 178.

<sup>2</sup> إيمانويل كانط: ما هو التنوير، ترجمة حسين اسماعيل، د/ص.

<sup>3</sup>ماكسهوركايمر، تيودور أدونزو: جدل التنوير، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1،

2006، ص 13.

<sup>4</sup>دوريندأرترام: مرجع سابق، ص 55.

## خلفية تاريخية للتتوير:

لقد كان للتغيرات والتحويلات الاجتماعية في أوروبا دروا كبير في ظهور المخاض الذي ولد من بعده التتوير، فقد تميز القرن الثامن عشر في أوروبا بعدد من الظواهر مثل: الهجرة من الريف إلى المدينة، والنمو السكاني وزيادة الإنتاج الزراعي في دول الشمال وبداية الثورة الصناعية في كل من بريطانيا وهولندا وشمال إيطاليا... الخ؛ كما كانت حركة الاستكشافات الجغرافية وما أعقبها من تأسيس مستعمرات في الشرق وإمبراطوريات في الغرب؛ وكان الاتصال بين الشرق والغرب آنذاك ليس أحادي الاتجاه كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكنه كان اتصال ثنائي الاتجاه بحيث يصدر الغرب إلى الشرق العادات والثقافات والكتب الحديثة ويجلب من الشرق فضلا عن المواد الخام والمحاصيل الزراعية فقد كانت الحياة آنذاك بدائية، وكان في خضم هذا الحراك الاجتماعي في المجتمع الأوروبي أن ارتفع معدل القراءة لأنها أصبحت لازمة لمقتضيات المعيشة كما تغيرت سبل وطرق القراءة، وفي بداية القرن العشرين كانت الكتب المقروءة هي كتب مقدسة ودينية والسير التقليدية، ومع نهاية القرن العشرين أصبحت المادة المقروءة تشمل على الروايات والصحف وكتب الأطفال والرحلات وكتب التاريخ الطبيعي، وتعددت سبل القراءة والاطلاع ما بين المقاهي التي تعرض الكتب إلى المكتبات وحضور الصالونات وإصدار سلسلة الكتب الزرقاء الرخيصة التكاليف، بحيث تكون في متناول الجميع ومن هنا بدأ التحدي القائم في كيفية انتقال فكر التتوير من النخبة الثقافية، إلى طبقات الشعب الدنيا من الفلاحين وصغار الحرفيين.<sup>1</sup>

وقد قام هذا المشروع في الأصل على ثلاثة أفكار ما زالت تنمو وتتطور، بحكم نتائجها وهي: الاستقلالية، والغائية الإنسانية لأفعالنا، والكونية، إن أول سمة تكوينية لعصر الأنوار تجعلنا نفضل ما نختاره ونقرره بأنفسنا على ما تفرضه علينا السلطة خارج إرادتنا وهو اختيار ذو وجهين وجه نقدي وآخر تكويني وذلك من خلال عدم الخضوع لكل وصاية

<sup>1</sup>دوريندوأوترام: التتوير، مرجع سابق، ص 16.

مفروضة على البشر من خارج إرادتهم أي التي تفرض عليهم من قبل جهات لها مصلحة، بما تجبرهم على الأخذ به، وكذلك يمكن الحديث عن مصطلحين أساسيين هما التحرر والاستقلالية وذلك بعرضهما بالتساوي.<sup>1</sup>

استطاع الفكر التنويري أن ينتصر على خصومه الذين كان في صراع ضدهم داخل أوروبا والمناطق التي كانت تحت تأثيرها، بحيث أمكن للمعرفة أن تتقدم بحرية دون انشغال يذكر بالمواعيد الإيديولوجية، ولم يعد الأفراد يخشون من سلطة التقاليد. وصاروا يسيرون كل شيء بمفردهم متمتعين بحرية التعبير والديمقراطية التي تمارس فيها سيادة الشعب في نطاق احترام حرية الأفراد، أما الحقوق العالمية للإنسان فقد غدت تعتبر بمثابة مثل أعلى للجميع كما أضحت المساواة أمام القانون قاعدة في كل دولة قائمة على الشرعية. وأصبح انشغال المرء بسعادته الشخصية أو برفاه العيش أمر لا يزعج أحد؛ لكن كل هذه الأفكار التي جاء بها عصر الأنوار لم تتجز برمتها، فالقرن العشرين الذي شهد نشوب حربين عالميتين وقيام أنظمة شمولية في أوروبا وخارجها بالإضافة إلى ما توصلت إليه التقنية من دمار وتقتيل بدا وكأنه يلغي كل الأفكار التي دعا إليها عصر التنوير، مما دعا بالكثير من المفكرين إلى الكف عن الانتساب إلى الأنوار وصارت الأفكار التي تتضمنها كلمات من قبيل "إنسية"، "تحرر"، "تقدم"، "عمل"، "إرادة حرة" فاقدة لكل اعتباراتها.<sup>2</sup>

وقد تعرضت أفكار عصر الأنوار للعديد من الانتقادات ورفض من أساسه عندما ظهرت المعادلة التي تعتبر أن: "أنوار يساوي ثورة وثورة تساوي إرهاب". وأدت هذه المعادلة إلى إدانة الأنوار إدانة لا رجعت فيها وفي هذا يقول لويس دي بونالد: "لقد بدأت الثورة

<sup>1</sup>تودوروف تزفيتان: روح الأنوار، مرجع سابق، ص 10.

<sup>2</sup>المرجع نفسه، ص 20.

بوثيقة الإعلان عن حقوق الإنسان ولهذا بالذات فقد انتهت بحمام من الدم". ويتمثل خطأ الأنوار في كونها وضعت الإنسان محل الله، ووضعت العقل الذي يرغب كل واحد في استخدامه محل التقاليد المشتركة ووضعت المساواة موضع المراتبية، ومجدت التنوع محل الوحدة، ومن هنا سقطت المبادئ الاجتماعية.<sup>1</sup> وبالرجوع إلى هوركايمر وأدورنو نجد أن لب المشكلة يقع في اعتماد التنوير على العقلانية، أي أن البشر يملكون القدرة على أن يجدوا حلاً صحيحاً لمشاكلهم موضوعياً بحيث تكون مقبولة من طرف الرؤوس المفكرة الأخرى بمجرد تحررهم من الأساطير والخوف، ذلك لأن البشر لا يتفوقون على تعريف ما هو عقلي، كما اعتبرت المعرفة سلعة تباع وتشتري فأصبحت مجرد وسيلة لغاية وأصبحت الثقافة سلعة تسوق كمعلومة دون أن تؤثر على الفرد الذي يكتسبها.<sup>2</sup>

أما بالنسبة لماركيز فقد كان من بين الذين عارضوا وانتقدوا مشروع التنوير، في بداية الأمر كان الهدف الأساسي من التنوير هو إبعاد الإنسان عن التفكير الأسطوري واعتماد المعرفة لكن كل تلك الأفكار التي حملها التنوير من حرية وتقدم لم يتم تحقيقها بالشكل الذي كان أصحاب هذه النزعة يأملون الوصول إليها، بل على العكس تماماً فبدل أن يصبح الإنسان متحرراً أكثر فقد واجه نوع جديد من السيطرة، التي أخذت أبعاد وأشكال تهدد وجوده الإنساني، ما أدى إلى القول بأنها بداية تراجع لمسار حركة التاريخ الإنساني كما يرى هوركايمر، وأدورنو، لأن ما نتج منه من ابتعاد الإنسان عن القيم والمبادئ الإنسانية قد جعل من هذا المشروع مشروع غير مؤهل لتحرير الإنسان من السيطرة التي كان يعاني منها، كما أصبح يشكل مصدر تهديد للوجود الإنساني ككل فقد اختفت الحرية وغاب العقل مما أدى إلى لاعقلنة التفكير، وهذا يوحي بإحساس التشاؤم والتمزق في ظل حضارة تقنية تتدفع بسرعة غير مسبوقه نحو هاوية اللاعقل والتشيؤ عن طريق عقلها

<sup>1</sup>تودوروفتزيفيتان: روح الأنوار، ترجمة: حافظ قويعة، دار محمد علي للنشر، ط1، بيروت، 2007، ص 30.

<sup>2</sup>دوريندا أوترام: التنوير، مرجع سابق، ص 74.

الأداتي حيث نجد أن مفهوم العقلانية الأداة قد ارتبط بالتنوير.<sup>1</sup> وهذا ما أكد عليه ماركيز من خلال قوله: "وقد اتخذ العقل في فلسفة العصر البرجوازي شكل الذاتية العقلانية".<sup>2</sup> وعليه انتقد ماركيز فلسفة التنوير من خلال إثارة أسئلة حول بنية العقل المعاصر، فيتساءل هل الصورة التي وصلت إليها الحضارة المعاصرة هي نتيجة لفلسفة التنوير؟ التي استبعدت الأبعاد المختلفة للعقل وجعلته يقتصر على العقل العلمي والتكنولوجي، و تم استبعاد أبعاد العقل الأخرى مثل: البعد النقدي، الخيالي، الجمالي والأسطوري... إلخ؛ ونتيجة لاتساع السوق وسيطرة العقل الحسابي أصبح الموجود المادي هو العقل الذي يتحكم في مصير الإنسان المعاصر، وتم إبعاد المعالم الأخرى، وإذا كانت فلسفة التنوير تدعونا إلى استخدام العقل في كل شيء، فإن ماركيز يدعونا إلى استخدام العقل في مجال جديد هو نقد العقل نفسه بدل استخدامه كما كينة اجتماعية للسيطرة والقمع، لأن فلسفة التنوير اهتمت بدراسة جهد الإنسان في الإنتاج والتأثير على الطبيعة دون الاهتمام بالحركة الاجتماعية الناجمة عن ذلك، ودون الولوج إلى الأبعاد الأنطولوجية للإنسان. ولكن يجب أن ننبه إلى أن ماركيز لا يقصد بنقد العقل، العقل كله إنما يستهدف العقلانية المترجمة إلى أعمال سياسية واقتصادية. ومن هذا المنطلق بدأ نقد ماركيز لعصر التنوير من خلال نقده العقل الأداتي.

بالرجوع إلى معنى العقل في اللغة، يقصد به: "الحجر والنهي" وقد سمي بذلك تشبيها بعقل

الناقة لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود.<sup>3</sup> وفي الخطاب الفلسفي: خصوصاً العربي فهي كلمة غامضة للغاية لها معان كثيرة متناقضة

<sup>1</sup> ماكس هوركهايمر، ثيودور. أدورنو: مرجع سابق، ص 23.

<sup>2</sup> هيربرت ماركيز: فلسفة النفي، دراسات في النظرية النقدية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012، ص 145.

<sup>3</sup> جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 84.

أحياناً، وعادة ما يوضح العقل في مقابل الخيال، والتجربة والإيمان والعاطفة، ولكن هناك أيضاً من يرى ضرورة ارتباط العقل بكل هذه المقولات كما يرى أنه من دونها يصبح أداة مدمرة، وهناك من يرى أن العقل ما هو إلا جزء لا يتجزأ من الطبيعة المادة وهذا هو العقل المادي.<sup>1</sup> ومنه فإن مصطلح العقل ليس مصطلحاً بسيطاً وقد ساهم فلاسفة مدرسة فرانكفورت ماركيز - هوركهايمر - ادورنو - هابرماس. في إلقاء المزيد من الضوء على العقل و إشكالياته فميزوا بين العقل الآداتي والعقل النقدي وبينو رفضهم للعقل الآداتي من خلال انتقاداتهم.

**والعقل الآداتي :** هو ترجمة للمصطلح *instrumental réason* ويقال له أيضاً العقل الآداتي أو التقني أو الشكلي، وهو على علاقة بمصطلحات مثل العقلانية التكنولوجية أو التكنوقراطية، ويقف على الطرف النقيض للعقل النقدي أو الموضوعي، والعقل الآداتي هو العقل الذي يلتزم على المستوى الشكلي بالإجراءات دون تساؤل عن مضمون هذه الغايات وأولوياته وحركاته انطلاقاً من نموذج عملي مادي بهدف السيطرة على الطبيعة والإنسان، إنه العقل المهيمن في المجتمعات الرأسمالية الحديثة الذي فقد فيها العقل دوره كملكة فكرية، وتم تقليصه إلى مجرد أداة لتحقيق أهداف معينة، كما أصبح أداة لتوفير الوسائل.<sup>2</sup> ولا يرجع أعضاء مدرسة فرانكفورت أصول العقل الآداتي إلى عنصر مادي، أو اقتصادي، وإنما يرجعونه إلى عنصر ثقافي حضاري، فحسب ما يرى "هوركهايمر" و" ادورنو"<sup>3</sup> يعود إلى الأساطير اليونانية القديمة خاصة أسطورة أوديسيوس باعتبار أن الإلياذة والأوديسا هما اللبنة الأسطورية الأساسية، وهذه الأسطورة هي شكل من أشكال العقل الإنساني أين كان الإنسان يعبر بها عن رغباته وميولاته الخاصة بالسيطرة على الطبيعة والتغلب على قهرها، في حين كانت تلك الطبيعة تقف في وجه معادي له وتحاول الانتقام منه وتخضعه إلى سيطرتها،

<sup>1</sup> عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، 2002، ص 118.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 118.

<sup>3</sup> كمال بومنيير: جدل العقلانية، مرجع سابق، ص 23.



وتعود أصل العقلانية الأداة في تاريخها إلى الفيلسوف رنيه ديكارت وفرانسس بيكون حينما وضعا الذات في مقابل الموضوع، من هنا تكونت العلاقة بين الذات العارفة وهي الإنسان، والموضوع المعروف أو المدروس وهي الطبيعة، حيث اعتبر ديكارت أن الذات أساس للمعرفة حيث ينطلق من الكوجيتو الديكارتي "أنا افكر إذا أنا موجود"، ومن هنا ترتبط الذات العارفة والموضوع القابل للمعرفة وهذه المعرفة ليست مجردة إنما هي على علاقة بما ينتج عنها من تطبيق عملي من خلال ما تحققه من منافع في حياة الناس.<sup>1</sup> ومن هنا فقد حققت هذه العقلانية نجاح كبير مع ديكارت أين جعل من الإنسان ملكا وسيدا على الطبيعة، وفي سياق التطور التاريخي الذي عرفته المجتمعات المتقدمة صناعيا والتي ارتبطت بمشروع العقلانية الأداة التي تربط بين السياسة والمعرفة الاجتماعية والتاريخية، لأن السياسة شأنها شأن أي مشروع هدفه فرض السيطرة على الإنسان وبناء عليه فإن الدولة تكون تسلطية شمولية ومن هنا تعتبر مدرسة فرانكفورت أن العقلانية الأداة لا تتفصل عن النمو الطبيعي للديمقراطية الليبرالية؛ ومن هنا نجد مارتن جاي يقول: "لقد اعتبرت مدرسة فرانكفورت النازية النموذج المتطرف للسيطرة اللامعقولة في العالم الغربي، بل اعتبرتها غير منفصلة عن الرأسمالية المتقدمة غير أن اهتمام المدرسة كان منصبا أكثر على ارتباطها بالعقلانية التكنولوجية باعتبارها قوة مؤسساتية".<sup>2</sup> ومن هنا نستنتج أن مفهوم العقلانية الأداة قد ارتبط بالتطوير، وبالتالي فهي لا تتفصل عن أولئك الفلاسفة اللذين ربطوا المعرفة العلمية والتقنية بفكرة إخضاع كل الظواهر الطبيعية والإنسانية للتقنين العلمي، وبهذا تتجدد الوظيفة الأساسية للعقل كأداة فعالة للتحكم والتي تنتج عنها السيطرة؛ كما وترى مدرسة فرانكفورت أن العقل الأداة قد ارتبط بالفهم، بمعنى أن نمط العقل الذي عولت عليه هذه العقلانية هو الذي يتم اختزاله في الفهم الذي يعتبر آلية ذهنية تلتزم بالعمليات التحليل

<sup>1</sup> كمال بومنبر: جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 23.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 31.

التصنيف الاستنتاج لمعرفة العلاقة التي تربط بين الأشياء، وقد تبلورت هذه الأفكار في نمط من التفكير العلمي التقني، وتقول المدرسة في هذا الخصوص: " العقل هو القدرة الذهنية للإنسان التي لا تهتم سوى بالأدوات فقط، بل آنا العقل نفسه هو مجرد أداة".

ومن بين أهم فلاسفة هذه المدرسة نجد الفيلسوف الألماني: هاربرت ماركيز يتحدث عن العقلانية الأداة، والتي ربطها بالمجتمع الحديث والذي سيطرت عليه العقلانية التكنولوجية أو المبدأ الأداة التي توظف كل شيء بما في ذلك اللذة ذاتها لمصلحتها، حيث اعتبر ماركيز: "أن العقل هو المقولة الرئيسية للفكر الفلسفي، والمقولة الوحيدة التي ربط بها نفسه بالمصير الإنساني".<sup>1</sup> فهو يمثل الإمكانية القصوى للإنسان والوجود، فقد اتخذ هذا العقل في فلسفة العصر البرجوازي شكل الذاتية العقلانية إلا أنه بشر في البداية إلى وجود نوعين من العقل، (عقل ما قبل التكنولوجيا، والعقل التكنولوجي) فالعقلانية ما قبل التكنولوجيا كانت توجهها جملة من المبادئ أبرزها مبدأ السيطرة، أي سيطرة الإنسان على الطبيعة، أما العقلانية التكنولوجية والتي اعتبرت امتداد مباشر فتحركها أيضا مبادئ السيطرة لكنها توسعت أكثر لتشمل سيطرة الإنسان لا على الطبيعة فحسب بل أيضا سيطرة الإنسان على الإنسان، حيث يقول ماركيز: " إن سيطرة الإنسان على الإنسان ما تزال تمثل في الواقع الاجتماعي وبالرغم من كل تغير استمرارا تاريخيا وما تزال هناك رابطة بين العقل ما قبل التكنولوجي والعقل التكنولوجي، بيد أن المجتمع الذي يضع الخطط ويشرع فعلا في تحويل الطبيعة عن طريق التكنولوجيا بغير المبادئ الأساسية للسيطرة"<sup>2</sup>

وقد ركز ماركيز نقده على عقل التنوير أو بالأحرى على انحرافه عن مقاصده الأولى، فقد تحول إلى عقل أناني، بارد، لا يفكر إلا في مصلحة الرأسماليين والغربيين المستعمرين والمهيمنين على العالم، ويصفه ماركيز بالعقل ذو البعد الواحد، العقل الذي أصبح مجرد أداة

<sup>1</sup> هاربرت ماركيز: فلسفة النفي؛ ترجمة: ص 144.

<sup>2</sup> هاربرت ماركيز: الانسان ذو البعد الواحد، ص 181.

فعالة في يد الرأسماليين والمجتمع الاستهلاكي الحديث ،وهو المجتمع الذي لا يؤمن بأي قيمة ما عدا قيمة الربح والفائدة واللذة الحسية والتوسع والسيطرة.<sup>1</sup> ومن هنا حدد ماركيز بداية دخول العقل في أزمة جديدة، وهي أزمة تصب في إطار المجتمع الصناعي المتقدم الذي سيطرة عليه العقلانية التكنولوجية ،(أو المبدأ الأداة)، والتي توظف كل شيء بما في ذلك مبدأ اللذة ذاتها لمصلحتها ولاحتواء مبدأ اللذة يقوم العقل الأداة بما يلي:

تقوم صناعة اللذة بترشيد أحلام الإنسان الجنسية واستيعابها داخل إطار النظام القائم، فهي تطلق الرغبة الجنسية من عقالها ولكنها تفرغ مبدأ اللذة من محتواه الثوري ،وتحتويه تماما، إذ تطرح إمكانية الإشباع الكامل من خلال عالم الخدمات المختلفة مثل السياحة والنوادي الليلية وأحلام الإباحية، والمواقع الالكترونية أي أن كل شيء يتم تدجينه وضمن ذلك الرغبة الجنسية نفسها؛ يقوم العقل الأداة بتخليق رغبات غير ضرورية ( زائفة) جديدة حين يتم إشباع الرغبات الضرورية (الحقيقية) وذلك من خلال الدعاية لأخر الموضوعات والإعلانات وما يسمى " التآكل المخطط" أي إنتاج السلع بطريقة تضمن تأكلها بسرعة،<sup>2</sup> ويلاحظ أن الجنس "العنصر البروميثي في الإنسان" يصبح مجرد خدعة إعلانية وبذلك يزداد اتساع نطاق الحاجة للسلع، كما يزداد إنتاجها وتظهر الوفرة السلعية، ولكن الوفرة هنا هي في واقع الأمر شكل من أشكال القمع لأي اتجاه ،نحو تساؤل عن الهدف من الوجود والحاجة لتحقيق الذات والبحث عن الحرية الحرية ، فكلما زادت إنتاج السلع وكثر الطلب عليها زاد معه القمع ،لأن مجتمع الوفرة يشكل سلسلة لخنق الفرد وضموره كلما زادت هيمنته على الطبيعة. ومن هنا يطرح ماركيز سؤال يتمثل محتواه في "كيف

<sup>1</sup> بن دريس أحمد: مرجع سابق ،ص 108.

<sup>2</sup> كمال بومنيير: مقاربات في الخطاب النقدي لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركايمر إلى هارتمان روزا، دار الأيام، ط1، عمان، 2015، ص 23.

يمكن للإنسان أن يخرج من هذا المأزق؟<sup>1</sup> تمثل جواب هيرت ماركيز على هذا السؤال فيما يلي:

عندما نجح العقل الأداتي في الهيمنة على الطبقة العاملة وتم تصنيفها كطبقة استهلاكية تعرضت من خلالها إلى غسيل لمخها وأصبحت مثال رئيسي للبعد الواحد تحي وتموت من أجل السلع والمادة؛ فكانت هذه هي نقطة الإنطلاق بالنسبة لماركيوز فكانت رؤيته هو الخلاص من السلع ذاتها، من خلال الطبقة المثقفة بالاستناد إلى العقل النقدي فتقوم بتوجيه الأفراد والمستهلكين الذين تم إغواؤهم من طرف الشركات الليبرالية الديمقراطية فهي الحل الوحيد الذي يمكنه أن يعتق الإنسان من شبح البعد الواحد، ومنه يصبح المجتمع متعدد الأبعاد.

وهكذا يمكن القول في خاتمة هذا المبحث أن فلاسفة مدرسة فرانكفورت انتقدوا العقلانية التي تبلورت وتشكلت في صورتها الفلسفية منذ عصر الأنوار، وهو عصر طمح فيه الإنسان إلى التحرر من مختلف أشكال الاستعباد الدينية والسياسية التي عرفت أوربا من قبل على بلوغ رشده العقلي، غير أن هذا التنوير الذي تم التبشير به والدعوة إليه قد انقلب إلى ما هو مناقض له وطراً عليه الفساد، نتيجة فكرة السيطرة التي كانت في البداية موجهة نحو الطبيعة ثم امتدت وشملت الإنسان نفسه في ظل المجتمع الصناعي المتقدم.<sup>2</sup> ولهذا فقد ركزوا على العقل النقدي للتوجيه النقد للأفكار والأفعال والنظريات والمؤسسات وترفض الامتثال والانصياع لما هو سائد وجاهز، قصد تغيير الواقع القائم وإنقاذ الفرد من سيطرة العقلانية الأدائية.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> كمال بومنيير: مقاربات في الخطاب الفلسفي لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 23.

<sup>2</sup> كمال بومنيير: جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ص 47.

<sup>3</sup> المرجع نفسه: ص 48.

**المجتمع القمعي التسلطي :** لقد أثر التسارع التقني تأثيرا بالغا على ما يسميه علماء الاجتماع التغيير الاجتماعي ،لقد أدى هذا التسارع الذي تم ضمن سيرورة الاختراعات و الانجازات التكنولوجية و المادية، إلى إحداث تغييرات جوهرية في المجتمعات الحداثية<sup>1</sup>. ولعل هذا الموضوع يعد من بين أكثر المواضيع تداولاً و نقاشاً بين الفلاسفة المعاصرين و من بينهم هربرت ماركيز الذي توجه بالرفض المعلن إلى التسارع التقني و التكنولوجي، و ما يخلفه هذا الأخير من دمار على الإنسان و على المجتمع ككل ، و لقد بين هربرت ماركيز في العديد من مؤلفاته و لعل أهمها "الإنسان ذو البعد الواحد" على اختفاء الدور التاريخي الفعال للطبقة البورجوازية و الطبقة البروليتارية على حد سواء ، وهناك قوة واحدة مخفية متحركة في مسار هاتين الطبقتين معا :هي العقلانية العلمية التقنية ؛ لم يكن هربرت ماركيز رأسماليا ،و لكنه و على الرغم من انتقاده و مخالفته لماركس في العديد من النقاط إلا أن ماركيز كان يعتقد نفسه إشتراكيا و لكن بطريقته الخاصة، فقد كان ينبذ المجتمع الرأسمالي الذي يمثله المجتمع الأمريكي الذي أصبح يشهد تدفقا عاليا في الإنتاج و انفتاحا كبيرا على المواد الاستهلاكية، وهو ما يبرره قول ماركيز الأتي : "إن مجتمع الوفرة يشهد غلبة الرأسمالية بحيث أن تنامي الإنتاج التجاري الذي لا ينقطع و الاستغلال الإنتاجي- وهذان هما نبضا الدينامية الرأسمالية - يتضافران ليتغلغلا إلى جميع أبعاد الحياة العامة و الخاصة." إذ أن الرأسمالية طغت على كل جوانب الحياة، لتقرض بذلك بساط سيطرتها حتى على الجوانب الخاصة للأفراد. و لقد استخدم ماركيز مصطلح الدعارة (العهر)، حيث اعتبر أنه لدعارة من جانب هذا المجتمع أن ينتج و يعرض كمية خانقة من البضائع بينما ضحاياه يجدون أنفسهم محرومين من القوت الضروري ،قائلا في ذلك : "إن مجتمع الوفرة لعاهر في مخاطباته في ابتساماته في سياسته في جهله في حطمة مزيفيه التي يحافظ عليها."<sup>2</sup> إن الاقتصاد أو كما سماه هربرت ماركيز هو اقتصاد الاستهلاك وهي سياسة منم

<sup>1</sup>كمال بومنيير :مقاربات في الخطات النقدي لمدرسة فرانكفورت ، مرجع سابق ، ص ،145.

<sup>2</sup>هربرت ماركيز: نحو ثورة جديدة، ترجمة عبد اللطيف شرارة، دار العودة ، ط1 ، بيروت 1971، ص 28.

سياسات رأسمالية الاحتكارات، لفقاً للإنسان طبيعة ثانية غير طبيعية الأصلية، جعلته مرتبطاً أشد الارتباط بذلك الطابع التجاري الذي أصبح يغلب على المجتمع الرأسمالي، والتسارع من أجل إنتاج أكبر واستهلاك أكثر، والهدف الذي تسعى إليه الرأسمالية هو إنتاج أكبر عدد ممكن من الآلات والأجهزة حتى لو كان ذلك على حساب الإنسان في حد ذاته يقول ماركيز: " إن الحاجة إلى امتلاك جميع الآلات والأجهزة والآلات من جميع الأنواع المقدمة وحتى المفروضة على الأفراد ثم إلى استهلاكها وتسييرها وتجديدها بلا انقطاع ، كالحاجة إلى استعمالها حتى مع المجازفة بحياة المرء أصبحت حاجة بيولوجية." ولقد وصف ماركيز السوق بأنه سوق سيطرة، وبالتالي سوق استغلال من طرف الرأسمالية التي تسعى إلى ترسيخ البنيان الطبقي للمجتمع، ليبقى بذلك الأفراد يعيشون دائماً في أسفل الطبقات والأسياد في أعلاها<sup>1</sup> ولا بد من الإشارة أن النظام الرأسمالي لم يكن يتمتع بقدر كبير من القوى الإنتاجية تلك المرحلة التي كان يتطلب بيع نواتج العمل الاجتماعي يقتضي تنظيمها للحاجات والرغبات حتى العقلية منها ، فعندما كان المجتمع البرجوازي على مستوى منخفض من حيث قواه الإنتاجية، لم تكن تتوفر لديه بعد الوسائل التي تتيح له التحكم في الروح والعقل، إلا إذا شوه هذا التحكم ووصفه عن طريق العنف الإرهابي ، أما اليوم فإن التحكم التام ضروري ووسائله متوافرة: الإرضاء الشامل للجماهير، وأبحاث التسويق، وعلم النفس الصناعي ، ورياضيات العقول الالكترونية، وبفضل هذه الوسائل كلها يتم تحقيق الانسجام والتناسق بين الفرد والرغبات الضرورية للمجتمع، أي بين الاستقلال والخضوع بطريقة غير إرهابية، ديمقراطية تلقائية، آلية<sup>2</sup> ويقول هيرت ماركيز في صدد ذلك: (إن سير عملية الإنتاج في الرأسمالية المتقدمة بدل شكل السيطرة، لقد وضع من جديد ستار التكنولوجيا على وجه المصلحة الطبقة الخالصة

<sup>1</sup> هيرت ماركيز: نحو ثورة جديدة، مصدر سابق، ص 29.

<sup>2</sup> فؤاد زكريا: هيرت ماركيز، مرجع سابق، ص 29.

، التي تقوم بعملها في البضاعة، ألا تزال ثمة ضرورة بعد للبيان أن ليست هي التكنولوجيا ولا التقنية ولا الآلة هي تمارس السلطة، وإنما هي حضور سلطة الأسياد وحدها في الآلات الذي يحدد عددها ومدة وجودها وسلطانها ومعناها في حياة الإنسان). ولعل هذا يوضح جليا كيف أن هيربرت ماركيز لا يرفض التكنولوجيا ولا تقدم الآلات وإنما يرفض ذلك الاستغلال القمعي التسلطي الذي يمارسه الأسياد أو السلطة العليا التي حررت نفسها وأخضعت الأفراد إلى سلطان هذه الآلات، ولقد اعتبر هيربرت ماركيز أن العلم والتكنولوجيا في أصلهما هما عاملي تحرر، إلا أن استعمالهما في نطاق ضيق وفي مجتمع قمع كالرأسمالي يجعل منهما عاملي سيطرة، أي أن المجتمع الرأسمالي يشغل كل من العلم والتكنولوجيا في إطار ما يفيد مصلحة الأسياد العليا هذان العاملان اللذان ساعد على تطوير روح الإنتاج في المجتمع الليبيرالي ، و لكن حتى لو حقق المجتمع الرأسمالي بعضا من الحقوق للأفراد بطريقته التلاحبية إلا أن الحظ و الجزء الأكبر سيكون من نصيب السلطات العليا و ذلك على حسب تعبير ماركيز في قوله : "لقد أصبح في وسع الرأسمالية أن تنتج عددا من أدوات الراحة و الإرتياح أكبر بكثير من ذي قبل ، وهذا يتيح لها أن توائم مواءمة سليمة بين منازعات الطبقات ، إلا أن ذلك لا يمحونها ستمتها الأساسية ، أعني 'إستهلاك القيمة الزائدة لحسابها الخاص ، و تحويل هذه القيمة الزائدة إلى فائدة ينالها الرأس الأكبر".<sup>1</sup>

إن مجتمعات الرخاء الصناعية الحديثة تحولت إلى نظام شامل للقمع و الهيمنة و السيطرة و عرضت الإنسان إلى أشكال مختلفة من القهر الظاهر و القمع الواعي و غير الواعي الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة و المؤسسات الإدارية و البيروقراطية و الاستهلاكية و الإعلامية، التي تشبه الات هائلة يحاول الناس أن يكتفوا أنفسهم مع ضغوطها و يضطرون إلى قمع طبيعتهم ، بل يبلغ بهم الأمر في كثير من الأحيان إلى عدم الإحساس بالقمع الذي

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: نحو ثورة جديدة، مصدر سابق، ص 32.

تمارسه عليهم تلك الأجهزة التقنية التي تتحكم فيهم، و توحد أنماط سلوكهم ، فيتوهمون أنهم يحيون حياة سعيدة هائلة في الوقت الذي تطيل فيهم أمد عبوديتهم و شقائهم و تضاعف القهر غير الضروري لدوافعهم و حاجاتهم الحقيقية.<sup>1</sup> و في ذلك يقول هربرت ماركيز : "و لقد كان من رأسمالية الاحتكارات و سطوتها أن خنقت في المهد ذلك الوعي بالتميز بين المصلحة الحقيقية و المصلحة المباشرة للمحكومين و الحاجة إلى تغيير جذري".<sup>2</sup> وواقع الأمر أن القوى المسيطرة على تلك المجتمعات هي التي اوحت إليهم بالحاجات المزيفة لتحقيق مصلحتها في إقرار الأوضاع القائمة مستعينة في ذلك على وسائل الإعلام و تقنيات التأثير على الجماهير التي استطاعت أن تشكل إحساسهم الفردي بالسعادة ، كما شكلت حاجاتهم الأولية و وحدتها و أخضعتها لمطالب الاستهلاك و صناعة اللذة و الرفاهية ، و أخطر ما في الأمر أن الناس يستسلمون لهذه الأوضاع و يقاومون أي محاولة ثورية لتغييرها ، متصورين أن هذا التغيير ضد مصالحهم لا ضد مصالح القوى المسيطرة<sup>3</sup>

إن مجتمع الحضارة الصناعية يسير قدماً نحو تحقيق التلاحم الاجتماعي الداخلي واستعداد كل شكل من أشكال التناقض والتجاوز والتعالي، يقول ماركيز : "ومن هنا كان هذا المجتمع مجتمعا أحادي البعد، مجتمعا يحيلك باستمرار إلى ذاته ويجرد من المعنى كل محاولة لمناوئته ومعارضته بل نفيه وهدمه مادام يلبي حاجات الناس ويرفع مستوى حياتهم باستمرار، ولكن هل الحاجات التي يلبها هذا المجتمع هي حاجات حقيقية أم كاذبة؟ حاجات إنسانية حقا وتلقائية أم حاجات مصنوعة اصطناعاً ومفروضة فرضاً". إن الجواب بالنسبة لهربرت ماركيز لا يقبل التباساً: إنها حاجات وهمية من صنع الدعاية والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري ، وإذا كان المجتمع يحرص على تلبية هذه الحاجات

<sup>1</sup> عبد الغفار مكاي : النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت تمهيد و تعقيب نقدي ، حوليات كلية الآداب ، الحولية 13، الرسالة 88، مجلس النشر العالمي ، الكويت ، 1993، ص، ص، 31، 30.

<sup>2</sup> هربرت ماركيز : نحو ثورة جديدة ، مصدر سابق ، ص 35.

<sup>3</sup> عبد الغفار مكاي: مرجع سابق، ص 31.



المصطنعة، فليس ذلك لأنها شرط استمراره ونمو إنتاجيته فحسب، بل أيضا لأنها خير وسيلة لخلق الإنسان ذي البعد الواحد، والمتكيف معه وما الإنسان ذو البعد الواحد إلا ذاك الذي استغنى عن الحرية بوهم الحرية، وإذا كان هذا الإنسان يتوهم بأنه حر لمجرد أنه يستطيع أن يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات التي يكلفها له المجتمع لتلبية حاجاته، فما أشبهه من هذه الزاوية بالعبد الذي يتوهم بأنه حر لمجرد أنه منحت له حرية اختيار سادته<sup>1</sup>، ولقد كان الدور الحقيقي الذي قام به ماركيز هو تشريحه للواقع اللاإنساني واللاعقلاني السائد في المجتمعات والأنظمة الشمولية، وتعريفه لمجتمع الوفرة والرفاهية الذي يدعي الحرية والعقلانية والديمقراطية من أقنعتة الزائفة المعادلة للحرية واللائسانية، فحال المجتمع الصناعي المعاصر يحمل الكثير من الإخفاقات كإغتراب الإنسان، وفقدان الحرية باسم الحرية وطابع التشيؤ، الذي انتقل إلى العلاقات الاجتماعية كلها دلالات على فشل عقلانية هذا النظام، ولقد أخذ ماركيز غاية توضيح الجانب السلبي الذي تخفيه حضارة التصنيع والاستهلاك، وأبرز أن القمع وهو الصور السيئة التي تحتفظ بها ذاكرة التاريخ ما تزال قائمة لكنها أخذت شكلا مغايراً وخفياً.<sup>2</sup> فإن التغيير الذي يطرأ عليها في المجتمع الرأسمالي المتقدم - أخطر بكثير، فالمفروض حسب النظرية الماركسية التقليدية، أن هذه الطبقة تزداد فقراً على الدوام كلما ازداد الإنتاج الرأسمالي اشتدت المنافسة بين المنتجين، إذ أن القيمة الفائضة تنقص ولا بد أن تأتي هذا النقص على حساب العمال، لا على حساب أصحاب العمال يقول فؤاد زكريا في ذلك: " هكذا يشتد التناقض بين الرأسماليين الذين يزدادون قوة وسيطرة و ثراء، والعمال الذين يزدادون فقراً وشخصاً على أوضاعهم، ويؤدي هذا التناقض إلى ظهور وعي طبقي لدى

<sup>1</sup> هريبرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد ترجمة جورج طرابيشي، منشورات الآداب، ط3، بيروت، 1988، ص 12.

<sup>2</sup> جمال براهيم: الإنسان والوعي في فلسفة هريبرت ماركيز، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير فلسفة، جامعة

قسنطينة، 2011/2010، ص، ص 94، 111.

العمال، بحيث تصبح هذه الطبقة تنظر إلى نفسها على أنها ضمير الإنسانية كلها، وعلى أنها الطبقة القادرة على تخليص البشرية من مظاهر الشقاء والظلم.<sup>1</sup>

هذا هو الوضع الذي تفرضه الماركسية في صورتها التقليدية، ولكن التطور الذي حدث في المجتمع الرأسمالي منذ مطلع القرن 20 أدى إلى إدخال تغيير جذري على الطبقة العاملة وموقفها من النظام القائم، ومن أهم أسباب هذا التغيير عاملان هما: قدرة هذا النظام على تحقيق نوع من الاستقرار يجنبه الأزمات والتقلبات المفاجئة، أما العامل الثاني فهو تأثير التكنولوجيا الحديثة، التي دخلت على العمليات الإنتاجية تحسينات في الكم والكيف، وانعكست هذه التحسينات على العمل اليومي الذي يمارسه العمال مما أدى إلى الإقلال باستمرار من مجهودهم الجسدي، وإلى إزالة الفوارق بالتدرج بين العمل اليدوي وبين العمل المكتبي، ويقول فؤاد زكريا على لسان ماركيز موضحاً كيف أن للتكنولوجيا الحديثة دور ساهم في إمداد النظام الرأسمالي عوامل القوة، وكيف ساهمت هذه الأخيرة بفضل تلك التكنولوجيات المتطورة على امتصاص روح السخط والغضب من الجماهير: "إن هذه التكنولوجيا الحديثة ذاتها تسهم في أن ينشر بين الطبقة العاملة قيم الرضوخ والاستسلام ويقدم إليهم في أوقات فراغهم ترويحاً سطحياً تتغلغل فيه المعاني التخديرية التي يريد النظام أن يبثها في النفوس، مما يترتب عليه إضعاف موقف السلب أو الرفض لدى العامل، بحيث يختفي نهائياً عن الطبقة العاملة مظهرها القديم الذي كانت تعد فيه النقيض الحي، للمجتمع القائم."<sup>2</sup>

ومن بين أهم الأفكار التي نادى بها ماركيز هي فكرة الحرية وليس فقط الحرية من القيود التي فرضها عليه المجتمع الرأسمالي، بل أن يمتلك الإنسان كذلك الحرية الاقتصادية أي التحرر من الإكراه الذي تمارسه القوى والعلاقات الاقتصادية، وليس فقط من الجانب

<sup>1</sup> فؤاد زكريا: هيرت ماركيز، مرجع سابق، ص 34.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 35.

الاقتصادي، بل من الجانب السياسي كذلك يقول ماركيز في ذلك : " إمتلاك الحرية السياسية يجب أن يفي بالنسبة إلى الأفراد أنهم تحرروا من السياسة التي ليس لهم عليها من رقابة فعلية وإمتلاك الحرية الفكرية يجب أن يعني إحياء الفكر الفردي الغارق حالياً في وسائل الاتصال الجماهيري".<sup>1</sup>

بمعنى أن الحرية السياسية تقتضي كذلك التحرر من السياسة وإمتلاك الحرية الفكرية يعنى قيام الفكر كفكر قائم بذاته لا يمت بأي صلة للفكر الفردي القديم، ونقد ماركيز لم يقتصر على النظام الرأسمالي، فحسب بل هو نفس النقد الذي وجه إلى المجتمع السوفيتي، بحيث أن التجربة السوفيتية في العقد الثاني من هذا القرن، كانت مبعث أمل لدى الكثيرين في أن يظهر نظام آخر تختفي فيه نهائياً مظاهر الاستغلال وتتحقق فيه لأول مرة حرية حقيقية للبشر، ولكن ماركيز يعتقد أن هذه التجربة لم تحقق شيئاً من هذه الأهداف ومن الجدير بالملاحظة أن ماركيز، في نقده للتجربة السوفيتية يحرص على أن يؤكد أنه لا ينقد التجربة الاشتراكية في ذاتها ولا يوجه هجومه إلى الماركسية، وإنما يهاجم شكلاً معيناً من أشكالها وهي الماركسية السوفيتية، ذلك أن لدى ماركيز تفسيره الخاص للماركسية الذي يؤمن بأن التطبيق السوفيتي قد أدى إلى تشويبه ، ولذلك أصر ماركيز ولا سيما في كتاب الماركسية السوفيتية على إبراز أوجه الشبه بين النظامين وعلى الرغم مما بينهما من تضاد ظاهري ملحاً في ذلك على إثبات أن الجنة السوفيتية ليست على الإطلاق أفضل زمن الحجم الأمريكي الرأسمالي<sup>2</sup> بل أنها تتضمن كل عناصر القمع والاستبداد والتحكم في الإنسان التي ينطوي عليها المجتمع الرأسمالي وفي هذا يقول ماركيز حسب فؤاد زكريا: " لقد وقع النظام السوفيتي في فخ السعي إلى التفوق الانتاجي، فكانت النتيجة أن تكررفيها الاخطاء التي تولدت عن هذا السعي في المجتمع الرأسمالي فالهدف الذي يتجه إليه المجتمع السوفيتي بكل قواه هو تجاوز معدلاته الإنتاجية باستمرار حتى يلحق

<sup>1</sup> هريتماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 40.

<sup>2</sup> فؤاد زكريا: هريتماركيز، مرجع سابق، ص 36.

بالغرب ثم يتوقف عليه". وعليه حين تصبح الإنتاجية والرغبة نحو المزيد هي الغاية القصوى يتحول الإنسان ذاته إلى مجرد أداة لتحقيق الهدف الأسمى<sup>1</sup> ومن هنا يتقارب النظامين تحت ظل سلطان الترشيح التكنولوجي في خلق إنسان ذي بعد واحد، والذي يعمل على تحقيق المعدلات الإنتاجية المطلوبة دون اعتبار لأي عامل آخر، وعليه يمكن القول بأن النقد السلبي يمثل الجانب الأكبر من تفكير ماركيز وليس هذا بالأمر المستغرب، إذ أنه لا يقتصر على نقد نظام بعينه، بل أنه ينقد كل النماذج الموجودة سواء منها الرأسمالية أو الاشتراكية، وهو يرى أن أحادية البعد هي مرض العصر أو هي المظهر الرئيسي لضحالة الإنسان وغفلته والانحراف والتشويه الذي طرأ على حياته، فالإنسان ذو البعد الواحد في المجتمع الرأسمالي المتقدم وفي التطبيقات الاشتراكية الكبرى في العالم المعاصر، إن البعد الواحد، باختصار هو سمة الحضارة الحديثة في أشد صورها تقدماً و اكتمالاً.<sup>2</sup>

### التكنولوجيا كأداة سيطرة:

يمكن القول بأن هاربرت ماركيز يتفق مع هيدجر في فكرة أن التقنية مشروع قد ارتبط بالسيطرة، ومن ثمة لم يعد من الممكن القول بحيادها وموضوعتها، ولم يخف تأثير ماركيز بأستاذه هيدجر في موضوع التقنية، حيث يرى أن التقنية أصبحت تمثل في المجتمعات المعاصرة نوعاً من السيطرة الكلية على الإنسان، وأن الطابع الشمولي يجعل منها قوة تتحكم في جميع النشاطات الإنسانية، لكن ماركيز يختلف عن أستاذه هيدجر حيث أن هذا الأخير قد تطرق إلى مسألة التقنية وقام بنقدها في صورتها الفلسفية الميتافيزيقية من خلال الكشف عن ماهيتها، حيث كان هذا الطرح حسب ماركيز بعيداً عن التحليل الاجتماعي لمسألة التقنية ضمن التطورات السريعة التي تعرفها المجتمعات المتقدمة صناعياً، لذلك نجد ماركيز قد انتقل من الطرح الفلسفي الأنطولوجي لأستاذه إلى مستوى التحليل الفلسفي المجرد، ذلك

<sup>1</sup>فؤاد زكريا مرجع سابق ص 37.

<sup>2</sup>المرجع نفسه، ص 40.

لأن الطرح الأنطولوجي لم يعد كافياً لفهم الواقع الاجتماعي، وخاصة في ظل التحولات التي عرفتتها المجتمعات المتقدمة صناعياً. والتطورات الكبرى التي عرفتتها هذه المجتمعات، حيث أن تقدم التقنية المذهل أدى إلى تغيرات عميقة في حياة الإنسان المعاصر لذلك اعتبر أن التقنية هي مشروع اجتماعي تاريخي غرضه السيطرة.<sup>1</sup>

وفي هذا نجد ماركيز يقول: "إن مفهوم العقل قد يكون إيديولوجياً، ذلك أن التكنولوجيا أصبحت تمثل السيطرة (على الطبيعة والإنسان) بطريقة منهجية وعلمية وهذا ومن خلال مشروع تاريخي واجتماعي".<sup>2</sup>

ومن هنا أكد ماركيز على الطابع الاجتماعي والتاريخي في معالجة مسألة التقنية، وضرورة تجاوز الطرح الميتافيزيقي أو الأنطولوجي الذي بقي أستاذه هيدجر سجيناً له، ذلك أن ما كان يهدف إليه ماركيز هو إبراز وكشف آليات السيطرة التي تتم في ظل هيمنة التقنية، التي أصبحت في عصرنا تحدد مسار التطور التاريخي للمجتمعات القائمة والتي عرفت تقدماً (كمياً) مذهلاً في هذا المجال، غير أن الكشف عن هذه الآليات مرهون بضرورة الارتكاز على الواقع الملموس الذي تعيشه هذه المجتمعات، أو بعبارة أخرى أصبح من الضروري ربط مسألة التقنية بجملة الشروط الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، إذ لم يعد من الممكن فصلها عن هذه الشروط.<sup>3</sup>

لكن السؤال الذي يطرح ضمن هذا السياق: كيف يمكن الانفلات من سيطرة التقنية وهيمنتها الشاملة؟. يرفض ماركيز وينتقد أستاذه هيدجر حين اعتبر أن تجاوز الميتافيزيقا

<sup>1</sup> كمال بومنبر: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركايمر إلى أكسل هونيث، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010، ص 58.

<sup>2</sup> كمال بومنبر: جدل العقلانية في فلسفة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 219.

<sup>3</sup> كمال بومنبر: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 59.

هو في الوقت نفسه تجاوز لسيطرة التقنية، إذ اعتبر ماركيز أن مسألة الانفلات والإنعتاق من سيطرة التقنية التي أصبح الإنسان المعاصر مكبلاً بقيودها، لا يتم تحقيقه على المستوى الميتافيزيقي أو الانطولوجي، لذلك يرى أن الاعتقاد بتغيير العالم الذي عرف سيطرة التقنية باتاً أمراً مستحيلاً وغير واقعي، إذ لا يمكن الحديث عن مسألة تغيير الوضع القائم وتجاوزه إلا عبر الرجوع إلى الواقع الملموس أو التاريخي. لذلك يمكن القول أنه على الرغم من استفادة ماركيز من تحليل أستاذه في مسألة التقنية، فقد انتقده ولم يشاطره الرأي في طرحه لهذه المسألة، لهذا عمل على أن يكون طرحه أقرب إلى واقع المجتمعات المتقدمة صناعياً وانشغالاتها الحضارية<sup>1</sup>، لقد انطلق ماركيز وعلى خلاف أستاذه من نقطة مفادها " المجتمع المعاصر"، أو كما سماه مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة، الذي اعتبر أن هذا المجتمع حقق هيمنة على الفرد متجاوزاً كل أشكال السيطرة التي مارسها المجتمع في الماضي على أفرادها ولقد كانت السيطرة على مر العصور شكلاً عقلياً من أشكال العلاقات الإنسانية وبسبب طابعها اللاعقلاني هذا على وجه التحديد كان في وسع الإنسان دوماً أن يعقلها ويفضحها ويطالب بوضع حد لها، بيد أن السيطرة الاجتماعية في عصر التقدم التكنولوجي تتلبس طابعاً عقلياً مجرد سلفاً كل احتجاج ومعارضة من سلاحهما، ولكن إذا تساءلنا ما معنى الطابع العقلاني للسيطرة. وهل يمكن أن يكون للسيطرة طابعاً عقلياً في الأساس؟ لوجدنا الإجابة بأنها قدرة هذا المجتمع وبفضل التطور التقني على استباق كل مطالبه بالتغيير الاجتماعي، وعلى تحقيق هذا التغيير تلقائياً، ومن زاوية الانجازات العظيمة التي حققها المجتمع الصناعي المتقدم تبدو النظرية النقدية المطالبة بتجاوز هذا المجتمع هي اللاعقلانية وليس هو، إذ يتساءل ماركيز قائلاً: "هل من المعقول المطالبة بتغيير مجتمع يثبت يومياً قدرته على تنمية الإنتاجية وتوفير حياة الرفاه لأعضائه؟"

<sup>1</sup> كمال بومير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركايمر إلى اكسل هونيث، مرجع سابق، ص 60،

ولكن هذا ظاهر الأمور ليس إلا، فالمجتمع الصناعي المتقدم هو برمته مجتمع لا عقلاني لأن تطور إنتاجيته لا يؤدي إلى تطور الحاجات والمواهب الإنسانية تطورا حراً بل على العكس من ذلك تماماً، فإنتاجيته لا يمكن أن تستمر في التطور على الوتيرة الراهنة إلا إذا قمعت تطور الحاجات والمواهب الإنسانية وفتحتها الحر شأنها في ذلك شأن السلم الذي ينعم به المجتمع المعاصر إذ أن هذا السلم غير متحقق إلا بفضل شبه الحرب الشاملة المنذرة دوماً بالاندلاع<sup>1</sup> صحيح أن التكنولوجيا حققت السعادة والرفاهية للإنسان بالإضافة إلى التقدم والرفي وكانت ولازالت وسيلة للتطور حضارياً وثقافياً، وفضل التكنولوجيا معروف وأثارها ملموسة من الجميع، إلا أن ماركيز كان له رأي مخالف في موضوع التكنولوجيا وأثارها على الإنسان المعاصر في شتى المجالات فالتكنولوجيا ليست فقط آليات وأدوات يتم استعمالها، بل إنها تحصل معها ثقافة ونظام قيم ورؤية للعالم ومنطقاً يتعين استيعابه، كما تثبت تغييراً في معنى الحياة ذاتها، يصاحب دخول التقنية كذلك تغير في التطور والتنظيم التقليدي للمكان والزمان وللعلاقات العائلية بين الناس وفي مدلول السلطة السياسية، إذ تعد الآلة استمراراً وامتداداً لحواس الإنسان وقدراته، بل أصبح الإنسان ذاته امتداداً للآلة إلى حد ما ولقد اكتسبت الآلة خصائص إنسانية بينما اكتسب الإنسان خصائص آلية.<sup>2</sup>

لقد عرف هيربرت ماركيز (التكنولوجيا) في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد قائلاً: "إن التكنولوجيا هي بالتعريف علم تحويل الأشياء (أشياء الطبيعة) إلى أدوات مروضة، مسيطر عليها، بهدف استغلالها لأغراض اجتماعية وحضارية."؛ ويقول أيضاً: "إن التكنولوجيا هي فن غزو الطبيعة والتغلب على مقاومتها الخرساء." ومن هذه الزاوية تلعب التكنولوجيا دوراً تقدماً، ولكن عندما أصبحت التكنولوجيا هي الشكل العالمي للإنتاج المادي، أي عندما أصبحت تلك القوة هي المحددة لحياة العصر وثقافته في ظل مجتمع

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 11.

<sup>2</sup> محمد سبيلا: صدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، 2009، ص، ص 208، 209.

طبقي قمعي اضطهادي أصبح منطقتها هو منطق سيطرة الإنسان على الإنسان، وهكذا وبدلاً من أن تكون قوة التكنولوجيا قوة تحريرية عن طريق تحويل الأشياء إلى أدوات أمست عقبة في وجه التحرر عن طريق تحويل البشر إلى أدوات؛ فهو في هذه النقطة لا يرفض التكنولوجيا على نحو مسبق ومجرد وقبلي، بل على العكس فهو من عميق الإيمان بأن منجزات التكنولوجيا قد أوجدت لأول مرة في التاريخ الإمكانية الواقعية للتحرر ولتحرير الإنسان ولكنه في الآن نفسه أخلاقي العصر التكنولوجي من حيث أنه يؤمن بأن تحرر الإنسان لم يعد غاية ميتافيزيقية بعد أن قطعت التكنولوجيا شوطاً بعيداً في السيطرة على الطبيعة، ولقد رفض ماركيز الواقع التكنولوجي الراهن لأنه توقع استعباد الإنسان و تشيؤه وتحوله إلى أداة لا واقع تحرره.<sup>1</sup> وهكذا نجد ماركيز يبرهن في مقالة عن فيبر بأنه: "ليس تطبيق التكنولوجيا فحسب، بل التكنولوجيا نفسها، هي تمثل تسلطاً على الطبيعة والإنسان بطريقة منهجية علمية ومحسوبة وماكرة، وأن الأهداف والمصالح المحددة لهذا التسلط لا يتم دسها على التكنولوجيا فيما بعد ومن الخارج، وإنما لهذا يدخل في تصميم بناء الجهاز التقني". أن ماركيز يواصل القول بأن التكنولوجيا هي دائماً مشروع تاريخي واجتماعي، وما يستهدف منها هو ما يعترزم المجتمع والمصالح السائدة أن تفعله بالناس والأشياء، إلا أن فكرة المصالح السائدة تم تركها مبهمة دون تحليل بلا إشارة إلى ما إذا كانت هذه مصالح البرجوازية أم مصالح جماعة اجتماعية أخرى يمكن تعينها.<sup>2</sup>

إن التطور التكنولوجي الراهن هو واقع استعباد الإنسان وتشيؤه وتحوله إلى أداة لا واقع تحرره. كما يعتبر ماركيز أن التكنولوجيا سياسة قبل أن تكون أي شيء آخر لان منطقتها هو منطق السيطرة والهيمنة، ولأنها تخدم سياسة القوى الاجتماعية المسيطرة في الوقت الراهن، ولقد كان السؤال الذي يبدو نوعاً ما يغلب عليه طابع من السياسة لماركيز: لماذا لم تقم الثورة في البلدان الصناعية المتقدمة؟ وعلى وجه التحديد في البلدان التي افترضت النظرية

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: الانسان ذو البعد الواحد، ص، ص 16، 17.

<sup>2</sup> توم بوتومور: مرجع سابق، ص 78.



النقدية الكبرى ( الماركسية) ولقد انطلق ماركيز للإجابة عن هذا السؤال من الطاقة الهائلة التي يملكها المجتمع المعاصر، مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة الذي يتلبس طابعا عقلانيا، حيث تكمن عقلانية هذا المجتمع في القدرة التي يمتلكها بفضل التطور التقني على استباق كل مطالبة بالتغيير الاجتماعي.<sup>1</sup>

ويؤكد ماركيز على أن هذا شكلا من أشكال السيطرة السياسية غير المعترف بها يتحقق باسم العقلانية، تمتد تلك العقلانية زيادة على ذلك إلى علاقات التوفر التقني الممكن، وتطالب بنمط الفعل والسيطرة، سواء أطبق ذلك على الطبيعة أم على المجتمع ضمناً لذلك فإن عقلنة علاقات الحياة حسب معيار هذه العقلانية تتساوي بمعناها مع مأسسة السيطرة، لا تصبح معروفة بوصفها سيطرة سياسية إذ لا يتخلى العقل التقني لمنظومة اجتماعية للفعل العقلاني الهدف عن مضمونه السياسي ولقد أشار ماركيز إلى أن السيطرة تتجه في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة صناعياً إلى أن تخسر طبيعتها الاستقلالية القائمة أي أنها تصبح عقلانية<sup>2</sup> دون أن تختفي سيطرتها السياسية ويقول هابرماس من وجهة نظر ماركيز: " القبيلية التكنولوجية هي إلى حد كبير قبلية سياسية، عندما تؤدي إعادة تشكيل الطبيعة إلى إعادة تشكيل الإنسان وعندما تنطلق الإبداعات الصادرة عن الإنسان من كلية اجتماعية وتعود إليها، لذلك يستطيع الإنسان أن يؤكد بأن مكتبة العالم التكنولوجي كما هي، تقف حيادية أما الاهداف السياسية فهي يمكن أنتسرع من خطى مجتمع ما، كما يمكن أن تحد منها"<sup>3</sup>

<sup>1</sup> يوسف الكلاخي: قراءة في كتاب الإنسان ذو البعد الواحد لهيريت ماركيز، قراءات في عالم الكتب والمطبوعات، الحوار المتمدن، 2013، د ص.

<sup>2</sup> يورغن هابرماس: العلم والتقنية كإيديولوجيا، ترجمة حسن صقر ، منشورات الجمل، ط1، ألمانيا، 2002، ص، ص 35، 36.

<sup>3</sup> مرجع نفسه، ص 54.

ويرى ماركيز أن الشرط الضروري لتجاوز الواقع التكنولوجي الراهن هو تحقق هذا الواقع واكتمال جبروته، وأن العقلانية الجديدة عقلانية الإنسان المتحرر من شتى أشكال السيطرة لن تبرز إلى الوجود إلا من خلال تحقق المشروع التكنولوجي واكتمال صيرورته، فماركيز يرى في التكنولوجيا سياسة، يكون منطلقها الأول هو منطلق سيطرة والسياسة تفترض دوماً وجود سائسين ومسوسين ، وهي أيضا سياسة تخدم سياسة القوى الاجتماعية المسيطرة في الوقت الراهن، وإن التحليل المرتكز على المجتمع الصناعي المتقدم لا يمكن فيه أن نعتبر جهاز الإنتاج والتوزيع التقني مجرد حشد جمعي من الأدوات التي يمكن عزلها عن مقتضياتها الاجتماعية والسياسية؛ فهذا الجهاز يعمل كنظام يحدد قلبيا ما ينبغي له أن ينتجه وكذلك وسائل صيانتته وتوسيع سلطته.<sup>1</sup> ومن هنا اعتبرت التكنولوجيا كأداة أو آلية أخرى تستعمل للتحكم والسيطرة في المجتمع الصناعي المتقدم ، وهي آلية سياسية وقد وصف هذا المجتمع بأنه عالم سياسي أيضا حيث نجد ماركيز يقول في هذا الشأن : "والمجتمع الصناعي المتقدم هو بوصفه عالما تكنولوجيا عالم سياسي أيضا، فهو المرحلة الأخيرة من مشروع تاريخي نوعي في سبيله إلى تحقيق والإنجاز، أعني تجربة الطبيعة وتحويلها وتنظيمها باعتبارها مجرد دعائم للسيطرة".<sup>2</sup> وعن طريق التكنولوجيا تلتغم الثقافة والسياسة والاقتصاد في نظام كلي الحضور يفترض أو ينبذ كل الاختيارات والحلول البديلة، ولهذا النظام إنتاجية وطاقة متعاضمتان تقودان المجتمع إلى الاستقرار وتحبسان التقدم التقني في مخطط السيطرة، إن العقلانية التكنولوجية قد عدت عقلانية سياسية؛ وإن هذا الوضع القائم يكرس السيطرة والهيمنة الكلية على نشاطات الإنسان المعاصر ويعبر ماركيز عن الهيمنة الكلية بمصطلح الشمولية التي أصبحت تميز المجتمع الصناعي المتقدم من خلال نموذجين: ( النموذج الأمريكي، والنموذج السوفياتي)؛ ولا نقصد هنا الشمولية بالمفهوم الذي ظهرت به خلال الحربين العالميتين، بل نقصد ما

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق ص ص 19 - 32.

<sup>2</sup> المصدر نفسه: ص 33.

نشاهده اليوم من خلال بروز شمولية جديدة خاصة بالمجتمع المتقدم صناعيا أين أصبح يتميز بالمستوى الهائل للتكنولوجيا، وفي نفس الوقت أصبحت نموذج للسيطرة على الإنسان؛ وتحولت هذه الشمولية السائدة في المجتمع الصناعي المتقدم إلى نوع من النسق التي عوض أن تؤدي إلى تحرير الإنسان وإلى تحقيق سعادته، فإنها على العكس من ذلك أصبحت وسيلة سيطرة عليه، لكن هذه السيطرة لم تكن مثل السيطرة التي كان يخضع لها الفرد قبل عصر النهضة إنما هي سيطرة تتم باسم الحرية والديمقراطية والتسامح انطلاقا من العقلانية التكنولوجية التي وكما أشرنا إليها سابقا في نفس الوقت عقلانية سياسية لكن في هذا المجال خاصة لا يتم الإقرار بالمحتوى الحقيقي للحرية والديمقراطية، بل يتم إفراغ محتواها واستخدامها كمجرد شعارات وواجهة تتحكم بها كالمؤسسات والسلطات الخاضعة لها، وتتم من خلال خداع و إضلال الناس عن الحقيقة والواقع بالرغم من الخطابات السياسية التي تتشد باسم الحرية والديمقراطية لكنها في الأخير تصبح مجرد زيف لا معنى له، لأن المعنى الحقيقي للحرية هو تحرر الإنسان من كل القيود وأن لا يكون لكل إنسان سيد له أو عليه يخضع لنظامه وسيطرته وقهره؛ كما هو الحال هنا بالنسبة لحرية الإنسان أي أنه لا يجب أن يخضع لأي ضغوطات سياسية أو اقتصادية تفرضها الدولة عليها.<sup>1</sup>

وكذلك التكنولوجيا التي أصبحت تفرض على الإنسان سمة السيطرة اللامحدودة واللامتناهية، أين أصبحت التقنية أو التكنولوجيا تمثل أداة سيطرة سياسية ألغت معنى ومضمون الحرية والديمقراطية وهذا ما أكده ماركيز من خلال قوله " لا وجود للديمقراطية في المجتمعات القائمة، حتى تلك التي تدعي وتزعم أنها ديمقراطية إن ما هو سائد في الواقع هو مجرد شكل من أشكالها المحدودة أو المقيدة، التي تفتقر إلى شروط الحقيقية والفعالة للديمقراطيات، وبهذا المعنى يمكننا القول أن هذه لم تتحقق فعليا

<sup>1</sup> كمال بومنبر: جدل العقلانية لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 141.

بعد<sup>1</sup> ومن هنا يظهر أن هذان المفهومان المجردان ما هما إلا مفهومان مفرغان من المحتوى، وما عليهما إلا التكيف مع حقيقة الوضع القائم آلية تكرر السيطرة بقوة أكثر من الديكتاتورية، ومن ناحية أخرى فإن الفرد في ظل التطور التكنولوجي لا يمكن أن يختار بكل حريته ما يرغب فيه ذلك أن قوى السياسية أصبحت تفرض سيطرتها عليها كما هو الحال في الانتخابات، التي هي آلية سياسية في المجتمعات الديمقراطية التي تقتضي من جهة نظرية حرية اختيار المواطنين لممثليهم ومراقبة ومحاسبة هؤلاء الناخبين لا يمكن أن يختاروا ممثليهم بحرية وخاصة عندما تكون وسائل الإعلام وأجهزة صناعة الرأي العام تمتلكها وتسيطر عليها تلك القوى و المؤسسات الاقتصادية والسياسية التي تحكم المجتمع الصناعي المتقدم<sup>2</sup>، ففي هذه الحالة لا وجود لمفهوم الحرية بمعناه الحقيقي إنما هي إخضاع وإجبار وسيطرة سياسية موجهة من القوى المسيطرة على الوسائل التكنولوجية، وعليه فإن أي عمل سياسي أو انتخابي في المجتمع الصناعي المتقدم حتى وإن أفرز حكم الأغلبية لا يمثل في واقع الأمر سوى دعم لما هو قائم وتكريس لمنطق السيطرة ويقول ماركيز في هذا الشأن: "إن ممثلي الأغلبية يخدمون مقتضيات تلك المصالح التي أوجدتهم". ومن هنا نعتبر أن التكنولوجيا هي فعلا وسيلة أو أداة سياسية غرضها السيطرة والهيمنة على العقلانية البشرية وذلك من خلال إبقاء المفاهيم المجردة في مكانها دون إلغائها لكن من خلال إفراغ محتواها وبهذا يكون القمع والسيطرة أشد على الإنسان المعاصر لأنه قمع مس حقوقه وألحق به عنف داخلي وخارجي وغزت فيه العقلانية التكنولوجية في ظل التوجه السياسي القائم على مناحي الحياة وذلك برفض النظم السياسية والاقتصادية القائمة في البلاد<sup>3</sup> وهكذا فإن الإنسان المعاصر أصبح عرضة. لعقلانية تكنولوجية ولكنها عقلانية سياسية في آن واحد

<sup>1</sup> هاربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 142.

<sup>2</sup> كمال بومنيير: جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 141.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 143.

ومنطقها منطق سيطرة ولهذا عمل ماركيز على الكشف عن آليات السيطرة التي تمارس على الإنسان باسم التحرر.<sup>1</sup>

ومن الناحية الثقافية: فإن التوسع الكبير الذي شهده الإنسان منذ بداية ظهور وسائل التكنولوجيا خاصة في المجتمع المتقدم صناعياً لم يرتبط بالجانب السياسي فحسب بل تعدى إلى أكثر من ذلك، فلم تعد هذه العقلانية التكنولوجية تسيطر على الطبيعة فحسب بل دخلت إلى أعماق ذات الإنسان من جانب النفسي والغريزي وخاصة الناحية الجنسية له<sup>2</sup>؛ كما نجد أن هذه العقلانية التكنولوجية تدمج أيضاً الإنسان المعاصر على المستوى الثقافي، وهذه الثقافة الغربية هي ثقافة تستند إلى أصول فكرية يونانية وبالأخص من أفلاطون وأرسطو، وهي أفكار سامية تعلو على العالم المادي الذي يتصف بالمعاناة والكدر والشقاء ويتضمن هذه القيم الثقافية ( الحق الخير الجمال)،<sup>3</sup> ما يمكن أن يجعل من الإنسان إنساناً كاملاً ومتجاوزاً للواقع المادي. كما اعتبر ماركيز أن القيم الثقافية تدفع الإنسان نحو الرغبة في تحويل واقعه وهي تمثل له ملاذاً خاصة على المستوى الثقافي، ومن هنا يظهر تأثير ماركيز بفريدريك شيلر؛ ومع التطور الذي شهده هذا العالم المتقدم قد تم أيضاً احتواء الفن والثقافة ودمجهما في الواقع التكنولوجي التقدمي فقد وظيفته النقدية والتحريرية وأصبح من هنا الإنسان ذا بعد واحد كما اصطلح عليه ماركيز ولكن لا زال هناك مجال لاعتبار أن الفن والثقافة هما المحفزان اللذان ينتقل بهما الإنسان إلى حال أفضل من الوضع الذي وجد فيه نفسه عندما أصبحت التكنولوجيا في ظل النظام السياسي هي التي تتحكم فيه.<sup>4</sup>

ولم يتوقف التطور التكنولوجي المعاصر على الحاجات المادية، بل سيطر بالإضافة إلى ذلك على الحاجات الفكرية، وغزا عالم الثقافة والفن الذي كانت فيما مضى لا ترضى

<sup>1</sup> كمال بومئير: جدل العقلانية، مرجع سابق، ص 147.

<sup>2</sup> المرجع سابق ص 118.

<sup>3</sup> المرجع سابق: ص 120.

<sup>4</sup> المرجع نفسه ص 145.

الاندماج مع الواقع القائم ولم يتم إفراغ الثقافة من محتواها الحقيقي عن طريق رفضها بل تم ذلك عن طريق إدماجها واحتواءها داخل المؤسسات، حيث انتقلت القيم الثقافية في المجتمع التكنولوجي المعاصر إلى مجرد قيم تجارية استهلاكية لأن كل شيء في هذا المجتمع التكنولوجي يتحول إلى قيمة سوقية (بضاعة)، وقد بين ماركيز أن التطور التقني قد أثر على عالم الثقافة وتم اجتياحه مما أدى إلى تلاشي العمل الثقافي بمعنى أن الأساليب والتقنيات الجديدة التي استعملت في إنتاج العمل الثقافي قد أثرت سلباً على أصالته حسب تعبير فلتر بنيامين، وذلك عن طريق نسخه بكميات كبيرة قصد توجيهه للاستهلاك الجماهيري وهذا ما اصطلح عليه بالاستتساخ الفني ما أدى إلى تشويبه.<sup>1</sup>

ويعتبر ماركيز أن نجاح وفشل المجتمع يكون من خلال تمسكه بالثقافة الرفيعة هذه الثقافة التي لم يكن يتذوق ثمارها ويجسد مثلها العليا سوى أقلية صاحبة امتيازات، والإنسان اليوم يستطيع أن يفعل أكثر مما فعله الأبطال الذين أعلت ثقافتهم من منزلتهم، وقد حل الكثير من المشكلات التي كانت تبدو وكأن لا حل لها لكنه خان ودمر الحقيقة التي كان يحميها تسامي الثقافة الرفيعة، ذلك عن طريق التطور التقني الذي يعيشه الإنسان المعاصر.<sup>2</sup>

ومن هنا تصبح الثقافة الرفيعة جزءاً لا يتجزأ من الثقافة المادية وتفقد بالتالي جزء كبير من حقيقتها. إن الثقافة الرفيعة للغرب الذي ما يزال مجتمعه الصناعي مستمراً في تلقي أعضائه القيم الجمالية والفكرية والأخلاقية كانت ثقافة ما قبل تكنولوجيا، بالمعنى الوظيفي والتاريخي للكلمة على حد سواء، وكانت تدين بقوتها لتجربة عالم لم يعد له وجود ولا يمكن العودة إليه لأن المجتمع التكنولوجي قد جعله مستحيلاً تماماً، وفي هذا يقول ماركيز: "أما اليوم فإن تقدم المجتمع التقني في سبيله إلى إلغاء هذه المسافة الجوهرية القائمة بين الفنون، وبين نظام ما هو يومي، إن الرفض الأكبر قد أمسى مرفوضاً فقد اندمجت هي نفسها

<sup>1</sup> كمال بومنيير: جدل العقلانية، مرجع سابق: ص 147 .

<sup>2</sup> هيربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 97.

بالمجتمع وباتت تتداول فيه باعتبارها أجزاء من العدة، وبالتالي باتت أشبه بسلعة تجارية فهي تباع وتشتري"<sup>1</sup>

حيث يميل المجتمع المعاصر إلى إلقاء امتيازات الثقافة الإقطاعية والارستقراطية وميزاتها وإلى الغاء مضمونها في أن واحد؛ صحيح أن غالبية الناس في استطاعتهم الوصول إلى الفنون بمجرد ادارتهم مفتاح الراديو أو التلفزيون، أو بمجرد دلوفهم إلى مخزن عام، ولكن الفنون تصبح مسننات في آلة ثقافية تعيد صب مضمونها في قوالب جديدة؛ ويعارض ماركيز الدعوى لجعل الثقافة مجرد سلعة تخضع لمنطق السوق والتجارة لأن تحويل العمل الثقافي إلى سلع وبضائع توجه لاستهلاك الجمهور سينعكس سلبا على وضع الإنسان نفسه، ذلك أن الفن قد مثل دوما حسب ماركيز الملاذ الأخير للإنسان أو البعد المتبقي له لخلق عالم آخر غير العالم القائم على السيطرة والمعاناة التي يعيشها في واقع أصبحت فيه العقلانية التكنولوجية تتحكم في كل شيء، وتنظم فيها حياة الإنسان بطريقة نمطية مقبولة.<sup>2</sup>

لم يكن ماركيز معارضا لما يسمى بدمقرطة الثقافة بل أن ما يرفضه هو عملية أو آلية الإدماج التي أصبح الإنسان المعاصر ضحية لها، فقد حول المجتمع التكنولوجي اليوم الأعمال الثقافية والأدبية إلى أعمال رائجة، غير أنها وعلى الرغم من ذلك أصبحت تخضع في الوقت نفسه وبطريقة محكمة إلى التوظيف الأدوات، الذي يخدم في آخر الأمر مشروع السيطرة.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> هيربتماركيزوز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر نفسه، ص 99.

<sup>2</sup> كمال بومنبر: جدل العقلانية: مرجع سابق، ص 130.

<sup>3</sup> المرجع نفسه: ص 131.

## التكنولوجيا والتدمير:

لقد كان موقف ماركيز واضحاً تجاه التطور التقني الحاصل في المجتمع الصناعي المتقدم رافضاً بذلك كل أشكال السيطرة والهيمنة التي فرضتها التقنية على الإنسان المعاصر، فكما كان للتقنية دور تصعيد الإنسان من جهة كان لها أيضاً دور إضعافه من جهة والتصعيد من سلطتها عليه من جهة أخرى.<sup>1</sup> يقول هيرت ماركيز: "تتحول القدرة التحررية للتقنية - تحول الأشياء إلى أدوات - إلى عائق في وجه التحرر، إنها تنقلب فتحول الإنسان إلى أداة"<sup>2</sup>؛ إن سرعة التطور العلمي والتقني تجعلنا في حالة عدم قدرة على استيعاب ومتابعة هذه التطورات التقنية المهولة، وبذلك نظل في موقف المستهلك ونظل إشكاليتنا هي كيفية نقل التكنولوجيا وليس كيف تسهم أو تبذع فيها فالتكنولوجيا هي التطبيق العملي للعلم، وكلاهما مرتبط بمشروع للسيطرة على الطبيعة وعلى الإنسان وتسخيره، نعم يبدو أن الإنسان سيد الآلة ومكتشفها لكن هذه تعود لتتحكم فيه وتستبعده، بل لعله هو الذي يجعل نفسه عبداً لها بعد أن كان سيدها، والتكنولوجيا تستخدم كذلك كأداة سيطرة داخلية وخارجية، سيطرة على الأفراد بغية تسخيرهم لمزيد من الامتثال والخضوع ولقد وصف هيرت ماركيز مظاهر السيطرة والتكليف في المجتمع التكنولوجي الذي استطاع بفعل درجة العقلانية التي توصل إليها أن يثذب البعد النافي للإنسان ويحوّله إلى كائن ممتثل، متقبل ذي بعد واحد هو البعد الإيجابي الإمتثالي نازعا عنه كل بعد ناف أو إنكاري وبالإضافة إلى السيطرة الداخلية هناك السيطرة الخارجية ففي إطار تقسيم العمل الدولي الحالي يصبح التقدم التقني أداة سيطرة على مصائر قارات ودول بأكملها، والتفاوت التكنولوجي مصحوب بسيطرة سياسية واقتصادية للبلدان التقنية على البلدان الأقل تطوراً، والغريب في ما يخص المظهر الأول للسيطرة التقنية أي عبودية الإنسان تجاه التقنية، أو ما يمكن أن نسميه بالاستلاب التقني<sup>3</sup> أن هذا الاستلاب

<sup>1</sup> علاء ظاهر: مدرسة فرانكفورت من هوركايمر إلى هابرماس، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، ص 76.

<sup>2</sup> محمد سبيلا: مرجع سابق، ص 103.

<sup>3</sup> محمد سبيلا: مدارات الحداثة، مرجع سابق، ص 206



يتجه إلى أن يصبح عبودية تلقائية، حيث نجد الناس بلغة إسبينوزا: يصارعون من أجل عبوديتهم كما لو كانوا يكافحون من أجل خلاصهم. وهذا يوضح جليا عدم وعي الإنسان فيما ألا إليه، ففي الوقت الذي طغت عليه التقنية وبسطت رداء سيطرتها تزامم هو مع استغلالها غير مبالي بالوضع الذي أصبح مرهون به.<sup>1</sup> إن بدايات ظهور التقنية كان أمراً إيجابياً إذ استطاع الإنسان أن يتجاوز العديد من الصعوبات التي ظلت تتعبه للعديد من السنوات إلا أن الإفراط في استغلالها أوقع الإنسان في العديد من العوائق، ولعل أهمها أنه أصبح عبداً بدلا من أن يكون سيداً ولقد خلفت التكنولوجيا من جراء ذلك العديد من السلبيات مسببة بذلك ما يعرف بالدمار وفرض بساط السيطرة والهيمنة الأمر الذي أدى إلى ظهور ما يعرف بالتسلع والتشيؤ، إذ يعتبر هذان المصطلحان من أهم المصطلحات التي يناقشها هربرت ماركيز، وذلك لوصف بعض الظواهر التي أفرزتها المجتمعات العلمانية الحديثة، والتسلع كمصطلح يشير إلى أن السلعة وعملية تبادل السلع تصبح هي النموذج الكامن في رؤية الإنسان للكون ولذاته ولعلاقاته مع الآخر والمجتمع، وإذا كانت السلعة مركز السوق والمحور الذي يدور حوله، فإن التسلع يعني تحول العالم إلى حالة السوق، أي سيادة منطق الأشياء، ولأن السلعة شيء فإن التسلع يعني أيضا التشيؤ، أي تحول العلاقات بين البشر إلى ما يشبه العلاقات بين الأشياء (علاقات آلية غير شخصية)؛ ومعاملة الناس باعتبارهم موضوعاً للتبادل، فالمجتمع الصناعي يكشف عن إغتراب الإنسان وتشيؤه في ظواهر عديدة ومتنوعة، من هذه المظاهر أن الإنسان قد تحول في ظل علاقات العمل الصناعية والرأسمالية إلى مجرد عنصر أو جزء ضئيل من جهاز الإنتاج الهائل وصار عجلة صغيرة مجهولة قابلة لأن يستبدل بها غيرها داخل العالم التقني الضخم الذي يصعب الإحاطة بشبكته المعقدة أو بالقوى التي تحرك خيوطه.

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص، ص 207، 208.

بمعنى حلول الآلة محل الإنسان واستبداله بغيره تماما كما تستبدل قطع الغيار، ومن ثم يمكن القول أن الإنسان سلبت منه فرديته، وانحطت منه قيمته الإنسانية والذاتية تحت ضغط عملية الإنتاج الآلية إلى مستوى الشيء التي تشكله القوى المسيطرة كما شاءت.<sup>1</sup>

ولا يفوتنا هنا التذكير بأن أول فيلسوف بحث في موضوع التشيؤ هو غيورغ لوكاش وخاصة في كتابه "التاريخ والوعي الطبقي" ومن المؤكد أن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت مدينة بالكثير إلى فلسفة لوكاش، وهذا من شأنها في العشرينيات من القرن الماضي، لدى روادها الأوائل هوركايمر، أدورنو، هيرتماركيوز،... ولقد إشتق لوكاش ظاهرة التشيؤ من تعميم البنية التجارية السائدة في المجتمعات الرأسمالية، حيث نتج عن ذلك استبعاد الطابع الإنساني عن العلاقات بين البشر لصالح تشيؤ شامل ومتزايد يقول لوكاش: " إن جوهر البنية التجارية غالبا ما دلل عليه، إنه يركز على واقع أن رباطا أو صلة بين الأشخاص يأخذ طابع شيء". وهذا يعني أن التشيؤ يحول العلاقات الإنسانية في ظل هيمنة النظام الاقتصادي الرأسمالي - إلى أشياء جامدة وخاضعة لمنطق التبادل التجاري، بالصورة التي يتحول فيها البشر إلى سلع أو بضائع، ولقد كانت هذه نقطة انطلاق رواد مدرسة فرانكفورت الأوائل والحال أنه لم يكن من الممكن أن يتعمق مفكرو هذه المدرسة في تحاليلهم الفلسفية لو لا استنادهم إلى مفهوم التشيؤ عند لوكاش<sup>2</sup> ويقول هيرت ماركيوز في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد: " إن الواقع التكنولوجي الراهن هو واقع استبعاد الإنسان وتشيؤه وتحوله إلى أداة لا واقع تحرره."<sup>3</sup> والواقع أن التسلع والتشيؤ ليسا فقط ما خلفته التكنولوجيا من دمار مس الإنسان المعاصر، فالتكنولوجيا استخدمت كذلك كأداة لتضليل وعي الأفراد فمثلا ما يعانيه الإنسان من نقص في الحرية أضفت عليه التكنولوجيا المعاصرة صيغة عقلانية، بحيث تقيم وبالرهان على أنه يستحيل

<sup>1</sup> عبد الوهاب المسيري: أوراق فلسفية، مجلة علمية محكمة، العدد 19، القاهرة، 2008، ص، ص 239، 240.

<sup>2</sup> كمال بومنيير: مقاربات في الخطاب النقدي لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص، ص 107، 108.

<sup>3</sup> هيرت ماركيوز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 19.

"تقنياً" أن يكون الإنسان سيد نفسه وأن يختار أسلوب حياته يقول هيرت ماركيز: " إن نقص الحرية لا يطرح نفسه اليوم على أنه واقعة لا عقلانية أو واقعة ذات صيغة سياسية، وإنما يعبر بالأحرى عن واقع أن الإنسان بات خاضعا لجهاز تقني يزيد من رغد الحياة ورفاهيتها، كما يزيد من إنتاجية العمل".<sup>1</sup>

وهذا ما يثبت جليا أن الإنسان أصبح مضللاً بحيث لا يستطيع حتى التمييز بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون، محددًا بذلك موقفه من التبعية المفرطة للتكنولوجيا، إن التحمس الزائد للعلم، ومنجزاته منع المجتمع من الانتباه إلى السلبيات التي أدت إليها التقنية، إذ انتظم العلم وفق نمط العقل التقني الذي يعيد تنظيم المجتمع وفق غايات تقنية ليتحول هذا العقل التقني إلى مشرف ومراقب والمشكلة في السيطرة التقنية أنها لا تظهر بمظهر اللاعقلاني فهي ليست واضحة ولا استغلالية مباشرة، ولكنها في الوقت نفسه قوية وفعالة، وغير مرئية، وهي تتمثل في الأعباء التي تلقىها على كاهل الأفراد، وفي الإخضاع المكثف للأفراد لجهاز الإنتاج، والتوزيع الجبار وفي سيطرتها على وسائل تشكيل الرأي وتوجيه السياسة، ناهيك عن إلغاء خصوصية الإنسان وتضييق الخيارات

لديه إلى أقل درجة ممكنة<sup>2</sup>

<sup>1</sup>المصدر نفسه، ص 190.

<sup>2</sup> رشيد الحاج صالح: العلم وأزمة المجتمع الغربي المعاصر، مجلة جامعة دمشق المجلد 30، العدد 43، 2014، ص، ص 468، 469.

# الفصل الثالث:

الأمل الماركسيوزي وأفاق التغيير

## الثورة:

لقد إتخذ ماركيز الثورة كمشروع يقوم به المقهرون والمهمشون في المجتمع من أجل الحرية والتحرر، ولقد تناول ماركيز الثورة في العديد من مؤلفاته أهمها: "الثورة والثورة المضادة، نحو ثورة جديدة، العقل والثورة". فهي حسبه تعبر عن وعي الأفراد وهي أيضا من أكبر وسائل التغيير والتعبير وغايتها القضاء على التسلط و الاضطهاد والقمع والقهر وسلاحها العنف، وحين نتناول تصور الثورة عند ماركيز نلاحظ أنه تصور مغاير لتصور ماركس ذلك أن الأول له طرح جديد للمسألة يحركه سؤالان هامان: ما هي القوة التي يجب أن تقوم بالثورة؟ ثم فيما تتمثل هذه الثورة؟ فحسب ماركس تتحقق الثورة بعد إستلاء الطبقة العاملة على السلطة واضمحلال الاضطهاد المميز للمجتمع الرأسمالي.<sup>1</sup>

أما عند ماركيز فالثورة هي نقطة التحول من منظومة في الوضع القائم إلى تحرر الإنسان وخلصه من تلك السيطرة، والثورة كتعريف أولي و عام عند ماركيز هي إزالة نظام قائم ومستقر من الناحية الشرعية والدستورية بواسطة طبقة اجتماعية أو حركة تستهدف تغيير البنيان الاجتماعي والسياسي.<sup>2</sup>

والثورة لابد أن تكون مزيلة للاستلاب، وإذا وقفنا بين ماركس وماركيز نجد أن الإنسان عند كارل ماركس يظل دائما العامل المنتج وعلى قدر جهده يمكن أن يحرز تقدما، أما ماركيز يؤمن بأن المجتمع المعاصر وبفضل القوى الإنتاجية والتقدم التكنولوجي الهائل قد وصل إلى مستوى يسمح له بأن يعود مرة أخرى إلى الاستمتاع بحيويته ليستعيد السعادة أو اللذة الذي حرمه إياها مجتمع الإنتاج أو العمل، وفي هذا يقول ماركيز: "إن الإنسان بحاجة إلى ثورة جديدة تتجاوز نطاق الثورة الاجتماعية، ثورة تعيد إليه قيمة السعادة

<sup>1</sup> محمد الجوة: مفهوم القمع عند فرويد وماركيز، دار الفارابي، 1994، ص، ص 163، 164.

<sup>2</sup> سهير عبد السلام: مفهوم الاغتراب عند هيرت ماركيز، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2003، ص 104.

الحيوية وترد إليه وعيه بالغريزة وإحساسه بالجمال.<sup>1</sup> ويعتقد ماركيز أن الثورة من شأنها أن تنشأ مجتمعاً حراً بشرط أن تكون هذه الثورة منقطعة تمام الانقطاع عن مجتمع الاستغلال وأن تحقق التحرر من رفاهية المدبرة، ومن إنتاجيته المدمرة وحسبه هذه هي الثورة التي سوف تضع حداً لنهاية البؤس والقحط وماركيز لا ينفى ولا يرفض بأن الحرية تتوقف على التقدم التقني ومكاسب العلم، لكن لابد من مراعاة الشرط الجوهرى والضرورى حيث يقول ماركيز: "على العلم والتكنولوجيا كي يصبحا في مقدورهما أن يكونا عاملي تحرير، عليهما أن يبدأ اتجاهاهما وأغراضهما الراهنة." والمقصود بالأغراض الراهنة: هي عوامل السيطرة والاستلاب الذي فرضه ذلك التقدم التقني على المجتمع المعاصر، ويرى ماركيز أن التكنولوجيا إذا استطاعت تجاوز هذه الأغراض أصبحت بذلك تكنولوجيا تحرير وثمره خيال علمي ينتقي منه الاستغلال والعمل الشاق والسعي في تحقيقها<sup>2</sup> فما من ثورة سياسية أو اقتصادية أو جنسية، يمكن أن يحالفها النجاح ما لم يحدث تغيير في مفهوم ووظيفة العلم مع العلم والإشارة إلى أن ماركيز لم يطالب بالعودة إلى المفهوم الكيفي للعلم الذي سبق جاليليو، بل طالب بالأحرى ببناء مفاهيم كمية لأهداف جديدة نابعة من تجربة الإنسان للطبيعة.<sup>3</sup>

ويبرز هيربرت ماركيز في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد أن العقلانية الجديدة أي عقلانية الإنسان المتحرر من شتى أشكال السيطرة، لن تبرز إلى الوجود إلا من خلال تحقق المشروع التكنولوجي واكتمال صيرورته يقول ماركيز: "إن الإنسان لن يتحرر من التكنولوجيا إلا بواسطة التكنولوجيا وعن طريق تحرير التكنولوجيا."<sup>4</sup>

<sup>1</sup> فؤاد زكريا: هيربرت ماركيز، مرجع سابق، ص، ص 67، 68.

<sup>2</sup> هيربرت ماركيز: نحو ثورة جديدة، مصدر سابق، ص، ص 40، 41.

<sup>3</sup> بول أرويسون: اليسار الفرويدي، ترجمة عبده الرئيس، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص 197.

<sup>4</sup> هيربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 19

وينادي ماركيز من أجل التغيير بضرورة حدوث انقلاب لذلك يقول: "إن الانقلاب بات اليوم ضرورياً أكثر من أي وقت مضى"، وهنا يختلف ماركيز عن كارل ماركس الذي أسند الانقلاب أو الثورة إلى الطبقة العمالية والتي حسبه من شأنها إحداث التغيير ليذهب ماركيز إلى أن الطبقة العمالية لم تعد ولم تكن أبداً عامل من عوامل التغيير بل يرجعها إلى تلك الطبقة التي لم يتمكن المجتمع القائم من دمجها به إلا وهم المنبوذين على مختلف أنواعهم و اللامنتمين والعاطلين عن العمل والطبقات والعروق والألوان الأخرى المستغلة؛ أو ما يعرف بطبقة المهمشين إلا أن ماركيز يؤمن بفكرة أن طريق هذا التغيير شرط لازم من أجل التخلص من لاعتقانية المجتمع المعاصر التي تزداد عدوانيتها بروزاً واستغلاله يتفاقم.<sup>1</sup>

ويعود السبب في فرض ماركيز في أن يكون التغيير من طرف الطبقة العمالية، هو أن هذه الطبقة قد طالها التكيف والاندماج، وأصبحت بذلك وسيلة لتثبيت وإدامة النظام القائم انطلاقاً من أن وعي هذه الطبقة ضبط على تثبيت هذا النظام، بفعل إغراء الوفرة والطابع الاستهلاكي لذلك يقول هيربرت ماركيز في كتابه الثورة والثورة المضادة: "من البديهيات التي لا تحتاج إلى بيان أن الوعي المتوفر لغالبية الطبقة العاملة هو وعي غير ثوري."<sup>2</sup>

فوضع الطبقة العاملة في المجتمع الصناعي المتقدم مختلف تمام الاختلاف عن وضعه في المراحل الأولى للرأسمالية حيث استغلال فائض القيمة واستغلال الإنسان للإنسان من العوامل الرئيسية التي تدفع إلى الرفض والتدمير والثورة، أما الإنسان العامل في المجتمع المعاصر فقد قدمت له امتيازات هذه الامتيازات ذاتها تغدو أسباباً لرفض كل محاولة تغيير جذري وموانع أمام كل تمرد أو ثورة فطبة البروليتاريا تفقد مضمونها بعد التغيير المستمر في وعيها، وعليه يقول ماركيز: "إذا كانت هذه الطبقة غير موجودة، بمعنى

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: مصدر نفسه، ص، ص 19، 20.

<sup>2</sup> هيربرت ماركيز: الثورة والثورة المضادة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، ص 12.

أنها لا تتصرف كطبقة إذا فالثورة غير موجودة.<sup>1</sup>

ويؤكد ماركيز كذلك في كتابه فلسفات النفي قائلا: "إن المجتمع الرأسمالي لم يكشف بعد كل قوته وكل عقلانيته ومصير الحركة العمالية لا يزال غير مؤكد."<sup>2</sup>؛ مما يجعلنا نقول أن الطبقة العاملة عاجزة أمام عقلانية المجتمع الصناعي، وهي بالتالي بعيدة كل البعد عن إمكانية التحرر، في ظل النظام القائم، ولقد اعتبر ماركيز أن مكننة العمل و تأليله بطلاً مفعول الرفض والنفي الذي كانت تمثله الطبقة العاملة الكادحة، ودفعاً بهذه الطبقة إلى الاندماج بالنظام القائم فصار مطلبها الأول المساهمة في تسيير مشاريع لا لتغيير النظام الذي يوفر لها نسبياً رغد العيش لذلك يقول ماركيز: "... الطبقة العاملة هي على الدوام، عامل الثورة التاريخي بحكم موقعها المركزي في سير عملية الإنتاج... و لكنها أصبحت لمجرد مشاركتها في الحاجات التي توطد النظام استقراره، قوة محافظة وحتى مضادة للثورية."؛ ويعتبر ماركيز أنه ولكي تنشأ الثورة مجتمعا حراً لا بد أن تكون مسبقاً بالانقطاع، أي الانقطاع التام عن مجتمع الاستغلال وذلك بالتحرر من رفاهية المدبرة، من إنتاجيته المدمرة ومن الخمول الذي يبعث عنه.<sup>3</sup>

وعلى الرغم من إيمان ماركيز بأن الطريق مسدود أمام الثورة، إلا أنه قد اهتدى إلى قوى معينة في قلب المجتمع الحاضر، تستطيع أن تكون أداة عملية لإحداث عملية التغيير التي يدعو إليها ألا وهي فئة الشبان والطلاب، ولا يفوتنا الذكر بأن ماركيز وبصفته أستاذ ألماني للفلسفة، فقد أثرت محاضراته في فئة الطلاب لذلك وجه لهم ماركيز اهتمامه الخاص، اللذين ظهروا على المسرح بوصفهم قوة ثورية جديدة وكان هؤلاء الطلبة أنفسهم من ساهم في شهرته في السنوات الأخيرة من عمره، إذ وجد هربرت ماركيز

<sup>1</sup> Herbert Marcuse : le narcissisme soviétique, éd ,gallimard , paris, 1968, p 27

<sup>2</sup> هربرت ماركيز: فلسفة النفي، مصدر سابق، ص 7.

<sup>3</sup> هربرت ماركيز: نحو ثورة جديدة، مصدر سابق، ص، ص 37، 40.



في ثورات الشباب تأييداً قوياً لأفكاره التي نادى بها، والتي أعلن فيها أن القوى الثورية التقليدية وهي البروليتاريا، قد فقدت ثورتها بإدماجها في المجتمع الصناعي المتقدم إلى حد أصبحت تحرص فيه على بقاء هذا المجتمع الصناعي وتحافظ على طابعه الاستغلالي ولقد أشار هربرت ماركيز في ختام كتاب الإنسان ذو البعد الواحد إلى أن خلاص المجتمع لن يتم على يد أي جماعة من الجماعات المندمجة فيه.<sup>1</sup> بل سيتم على أيدي " الهامشيين"، والمرفوضين والمضطهدين والخارجين عن نطاق عملية الإنتاج، وعلى الرغم من أن الكثير من الكتاب اعتبروا أن موقف ماركيز هذا تعبيراً عن اليأس والشعور بالعجز عن إحداث تغيير حقيقي في المجتمع القائم، إلا أن الشباب أنفسهم قد رحبوا بها ووجدوا فيها دليلاً على أنهم أصبحوا الورثة الحقيقيين لروح الثورة في العالم، ولقد لقيت هذه الفكرة رواجاً كبيراً بين شباب العالم ولا سيما في البلدان الصناعية المتقدمة بأمريكا وأوروبا لذلك يقول فؤاد زكريا في كتابه هربرت ماركيز: " إذ أن شباب في هذا البلاد مهياً نفسياً للفكرة القائمة أنه مفروض ومنبؤ وأن الكبار لا ينتمون إليه ولا يتركون له دوراً في تحديد مجرى الأحداث، وتكاد المشكلة الرئيسة للمراهقين في هذه البلاد أن تكون عدم إصغاء الكبار إليهم وعدم تجاوبهم معهم، لأن هؤلاء الكبار منصرفون بكل قواهم إلى أعمالهم الإنتاجية". ولعل هذا ما يثبت حلياً اهتمام ماركيز بفئة الطلاب تلك على غرار الفئات الأخرى، وعلى الرغم من أهمية الدور الذي نسبه ماركيز إلى الشباب وإلى الطلاب خاصة في تحريك دقة الأحداث في عالمنا المعاصر، فإنه لم يكن يؤمن بأنهم هم وحدهم القوة القادرة على تحقيق التحول إلى المجتمع الجديد، فإذا كان الطلاب يعيشون على هامش المجتمع الصناعي في داخله فإن هناك فئة أخرى تعيش على هامش هذا المجتمع خارجه هي الثوار في العالم الثالث، فهم أيضاً مضطهدون، هامشيون لم تلوثهم حياة المجتمعات الصناعية المتقدمة، ويشير فؤاد زكريا إلى أن السبب وراء اهتمام ماركيز بالعالم الثالث هو أن الواقع قد أثبت أن الهزة الحقيقية التي زعزعت المجتمع الرأسمالي كانت ثورات التحرير التي نشبت في بلدان مختلفة

<sup>1</sup> فؤاد زكريا: هربرت ماركيز، مرجع سابق، ص 99، 100.

ولذلك يقول فؤاد زكريا: "فالتغيير الذي أحدثته ثورة الجزائر في فرنسا والذي أحدثته ثورة الفيتنام في فرنسا كان تغييراً هائلاً لا تزال آثاره تنكشف يوماً بعد يوم." وعلى الرغم من اعتقاد ماركيز بأن حركات الطلاب هي ذات تأثير محدود إلا أنه ربط بين اهتمام الشباب والاهتمام بالثورات التحررية في بلدان العالم الثالث، إذ أن الشباب أنفسهم في البلاد الصناعية قد تبنا قضية التحرر وثاروا على نظم الحكم في بلادهم من أجلها، وهكذا ربط ماركيز بين حركات الطلاب وثورات العالم الثالث فقال: "ينبغي أن تنجح معارضة الطلاب في أن تجعل من العالم الثالث ومن ممارسة الثورية قاعدتها الجماهيرية الخاصة."<sup>1</sup>

ومن هنا كان أمله يتجه إلى قيام تعاون وتنسيق حركات بين الطلاب والمعارضة في البلاد الرأسمالية، وعليه يمكن القول أن هيربرت ماركيز قد قسم الفئات التي من المتحصل ولو كان ذلك الاحتمال ضئيل أن تحدث تغييراً في المجتمع مقسماً إياها إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى هي الجماعات المحرومة من الامتيازات إذ يقول في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد: "والطبقات المستغلة والمضطهدة والعاطلون عن العمل والعاجزون عنه." ثم يقول " إن هؤلاء الناس يقفون خارج الصيرورة الديمقراطية وحياتهم تعبر عن الحاجة الملحة والمباشرة والواقفة إلى وضع حد للشروط والمؤسسات التي لا تطاق إن معارضهم ثورية وحتى وإن لم يكن وعيهم ثورياً."<sup>2</sup> وهذه الفئة حسب ماركيز ليس لها القدرة الكاملة على التغيير السلبي الجذري لأنها قوة بدائية حسبه، وهذه الفئة بدورها تنقسم إلى شريحتين فأما الأولى: هي ما يطلق عليها الطبقة العاملة الجديدة والتي غالباً ما تتكون من فنيين والمهندسين والمتخصصين والعلميين، في هذه الفئة بقوله: " فبنظر إلى نسبة الفنيين المتعاضمة، فإن اتخاذ موقف سياسي جذري لا يتحقق هذا إذا تحقق إلا في أوساط هؤلاء

<sup>1</sup> فؤاد زكريا : هيربرت ماركيز، مرجع سابق، ص، ص 105، 106، 107.

<sup>2</sup> هيربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 267.

الفنيين الذين سيكون لهم في هذه الحال عمل ووعي سياسيان مشتغلان والحال أن مثل هذا التطور الضعيف الاحتمال للغاية.<sup>1</sup> ، ولقد بنى ماركيز ولوهلة أملا على هذه الطبقة وذلك لامتلاكها الوعي، لكن سرعان ما يتراخى هذا الأمل، أما الفئة الثالثة: فتكمن في الطلبة والشباب؛ وأمل ماركيز كبير في فئة الشباب والطلبة في المعارضة ضد شمولية المجتمع الاستهلاكي، ولقد اعتبر أن السلاح الأول لهذه الشريحة هو الرفض الكبير وبالتالي النفي والتجاوز للواقع المعاش والذي سيحقق بالفعل الحلم الذي يتأمله ماركيز.<sup>2</sup> أما الفئة الثانية: وهي الدول المتخلفة من العالم الثالث، ولقد حدد ماركيز شروط مسبقة لبلوغ الهدف الثوري للدول المتخلفة والتي تكمن في الثورة الاجتماعية والإصلاح الزراعي والنضال ضد انفجار السكان لا التصنيع حسب نموذج المجتمعات الصناعية، إلا أن ماركيز يلمس النقطة المحورية في تقدم الدول المتخلفة، ولعل من أبرزها تلك الجملة الأخيرة التي تبرز التقليد الشامل للبلدان الصناعية المتقدمة، وعليه نستنتج أنه ليست حركات التحرر في البلاد المتخلفة هي التي تحقق التغيير السياسي الجذري، فماركيز يقول بالمستحيل، و يعترف له في الوقت ذاته وذلك من خلال استحالة حدوث تغير في سياسة وهو أمر لن يحدث على الإطلاق وهو ما يعبر عن الموقف التشاؤمي وغياب الأمل الماركسي.<sup>3</sup> ولعل هذا ما يؤكد هيرت ماركيز في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد قائلاً: " لا يمكن أن يوجد شكل من التقدم متلائم مع طبيعة البلاد إلا إذا حدث تغير في سياسة الكتلتين الصناعيتين الكبيرتين اللتين تصنعان العالم اليوم بالصورة التي تشاء أن بهذا التغير التخلي عن الاستعمال الجديد بمختلف أشكاله هناك في الوقت الحاضر أي

<sup>1</sup> هيرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 73.

<sup>2</sup> بهلول وهبية: منهج التغيير السياسي عند مدرسة فرانكفورت، هيرت ماركيز نموذجاً، مذكرة ماستر فلسفة سياسية، خميس مليانة الجزائر، 2016/2015، ص 96، 97.

<sup>3</sup> المرجع نفسه: ص، ص 99، 100.

بارقة أمل يسمح لنا بتوقع حدوث تغيير كهذا.<sup>1</sup> وبالتالي تتحدد أهمية الثورة عند ماركيز كما يمكن القول أن الاستراتيجية الثورية الماركسية تقوم على عدة محاور آلا وهي: تحرير الوعي، القطيعة التامة مع الأنظمة القائمة أو مبدأ الرفض العظيم، أما فيما يخص الوعي فقد اعتبر ماركيز أن الوظيفة الراهنة للمعارضة هي تطور الوعي، وهو ما أقره في كتابه الثورة والثورة المضادة بحيث يقول: " إن تحرر الوعي يظل المهمة الأولى وبدونه يبقى كل تحرير وكل فعالية جذرية أعميين، مقضيا عليها بالفشل." أما بالنسبة للقطيعة التامة مع الأنظمة القائمة فقد اعتبر ماركيز أن الحضارة الصناعية المتقدمة مجتمعا واحداً له طبيعة متجانسة هي طبيعة البعد الواحد الشمولي مجتمعا محصناً تماماً ضد النقد، ضد التمرد، ضد الثورة، مجتمع يحاصره التشيؤ من كل جانب وتظهر القطيعة التامة للمجتمع القائم بقوله: "وعلى الثورة التي من شأنها أن تنشئ مجتمعا جذرياً إذن أن تكون مسبقاً وهي لاحقة بانقطاع عن ذلك الاستمرار المحافظ."<sup>2</sup> أي التحرر من كل أشكال الاستغلال والاستلاب والتشيؤ والتخلص من تبعية وتحقيق بعد استقلالي وغيرها من عوامل الظلم الذي بات المجتمع الصناعي يقوم عليها، والتخلص إذن من قيوده فالهدف الثوري حسبه هو انعتاق المجتمع من مجتمع الرفاه ومن إنتاجيته المدمرة وتبعيته والانقياد له،<sup>3</sup> وبالتالي فإن المهمة الأساسية في ممارسة العمل السياسي الرافض إنما هي التنوير بأخلاقيات الثورة وتعميق الفهم للمجتمع الراهن وبدائيته الممكنة، وأن أولئك الذين يتصدون للعمل السياسي ينبغي عليهم أن يعملوا جاهدين على خلق حساسية جديدة من شأنها أن تحدث تغيير جذري، وانطلاقاً من المحاور التي تقوم عليها الثورة تتجدد متطلبات الثورة التي نادى بها هربرت ماركيز التي أدى إلى ظهورها كمفهوم إيجابي

<sup>1</sup> هربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 83.

<sup>2</sup> هربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 40.

<sup>3</sup> بهلول وهيبة: مرجع سابق، ص 103

وضروري.<sup>1</sup> إن أسمى ما تسعى إليه الثورة عند ماركيز هو تحرير الإنسان من كل قيوده، وجعله يتمتع بالرفاه وتحقيق تغيير جذري في الأنظمة المستبدة القائمة، إلا أن المجتمع الصناعي المتقدم يجعل الإنسان يعيش في قدر من الحرية يغلب عليها طابع التنفيذ وذلك كما يعبر عنه هيرت ماركيز بقوله: " الرفاه الفعلية، افتقاد الحرية في إطار ديمقراطي: ذلكم هو ما يميز الحضارة الصناعية المتقدمة ويشهد على التقدم التقني."<sup>2</sup> واعتبر ماركيز أن الإنسان لن يستطيع التحرر من البؤس، ذلك لأنه إذا أصبحت الحركة قابلة للإنجاز والتحقق، تفقد بذلك الحريات المرتبطة بالإنتاج مضمونها الأصلي، خاصة في ظل مجتمع سيصبح بفضل تنظيمه أقدر يوماً بعد يوم على تلبية الحاجات الفردية قامعا بذلك كل المحاولة للتغيير، لأنه لا خيار أمام الإنسان فأما العمل وإما الجوع لذلك يقول ماركيز: " إن المشروع الحر يشكل في الأصل نجاحاً تاماً كاملاً إذ لم تكن الحرية آنذاك إلا العمل أو الموت جوعاً، ولم تكن تعني إلا الكدح وعدم الأمان والقلق بالنسبة إلى الغالبية العظمى من السكان."<sup>3</sup> ولقد اعتبر ماركيز أن الحرية التي يعيش فيها الإنسان خاضعة لرقابة اجتماعية، و هي في أصل ذاتها منظمة من قبل مجتمع اضطهادي ما يجعل منها أداة سيطرة قوية ، فالحرية الإنسانية لا تقاس تبعاً للاختيار المتاح للفرد ، فالحرية الإنسانية لا تقاس تبعاً للاختيار المتاح للفرد وإنما العامل الحاسم الوحيد في تحديدها هو ما يستطيع الفرد اختاره و ما يختاره، و هو ما يوضحه جلياً قوله: "فقدرة المرء على اختيار سادته بحرية لا تلغي لا السادة و لا العبيد ، و الاختيار بحرية بين تشكيلة كبيرة من البضائع و الخدمات لا يعني أن المرء الذي يختار هو كائن حر ، ما دامت الرقابة الاجتماعية تتفنن بوطأتها على حياته الكادحة المقلقة، و مادام هو نفسه مستلباً، وإذا كان الفرد يحدد تلقائياً الحاجات المفروضة عليه

<sup>1</sup>المرجع نفسه: ص 104.

<sup>2</sup>هيرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، ص 37.

<sup>3</sup>المرجع نفسه: ص 38.

فهذا لا يعني أنه سيد نفسه، وإنما يدل فقط على أن الرقابات ناجعة<sup>1</sup>. فالمجتمع الصناعي المتقدم يعمل على تضليل وعي الأفراد، فلا وجود لتلك الحرية التي ينادي بها سادة هذا المجتمع، بل هي مجرد زيف و ذلك على حسب قوله: "إن كلمات الحرية و الامتلاء الكبير التي يلفظها الزعماء و السياسيون في حملاتهم على الشاشات و الموجات وفق المنابر لا معنى لها إلا في سياق الدعاية و الأعمال و الانضباط و التويح عن النفس و خارج هذا السياق تصبح اصواتا لا دلالة لها."<sup>2</sup>

إن المجتمع الصناعي المتقدم الذي يتمتع بقيمة الديمقراطية فقد فيه الإنسان ما يعرف بالحرية و ذلك على حسب قول هربرت ماركيز. إن التشخيص الحقيقي لمرض العصر الحديث الذي توصل إليه ماركيز: هو أن الإنسان يعيش متلهفاً على الإنتاجية الزائدة لاهتاً و راء الكشوف و الاختراعات التكنولوجية المتجددة ، و بذلك يضع الوسائل موضع الغايات ، و عليه لابد على الإنسان أن يدرك الإنتاج و التكنولوجيا مجرد وسائل و عليه أن يتساءل: لأي غرض ينبغي أن أزيد من إنتاجي؟ و ما هي الغاية التي سأستخدم من أجلها التجديدات التكنولوجية؟ و هربرت ماركيز لا ينادي بضرورة التخلي عن التكنولوجيا و الرجوع إلى عصور بدائية لم يعرف فيها الإنسان الآلة بعد، فههدف ماركيز هو تجاوز الإنتاج التكنولوجي مع احتفاظه به ، أي البحث عن حضارة جديدة تستوعب الحضارة القديمة في داخلها دون أن تلغيها ، يقول فؤاد زكريا: "فالجديد يلغي القديم لأنه يتجاوزه ولكنه في الوقت ذاته يحتفظ به، و لأنه يشمل عليه بوصفه جانبا من جوانبه . " و عليه يمكن القول بأن المجتمع الذي ينادي به ماركيز أشبه بالهندسة الإقليدية و الهندسة اللاإقليدية، فالأخيرة لا تلغي الأولى إنها تضيف إليها إمكانات جديدة لم تكن تخطر على

<sup>1</sup> هربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد ، مصدر سابق ص، ص 43، 44.

<sup>2</sup> المصدر نفسه: ص، ص 38، 39 .

بال أنصار النسق القديم<sup>1</sup>

### الفن والإستيطيقا:

ليس ثمة شك أن الفلسفة الغربية المعاصرة في القرن 20 قد أولت اهتماماً كبيراً للحقل الفني والجمالي، وإذا كانت أهم ملامح هذا القرن هو ما شهدته من ثورات علمية وتقنية أثرت في مجرى التاريخ الإنساني برمته فإنه شهد أيضاً ثورة في الحقل الجمالي.<sup>2</sup> وفي كتاب فؤاد زكريا الموسوم "هربرت ماركيز، يقول بأن ماركيز يعتبر الفن في صميمه احتجاج على الواقع القائم، تلك هي ماهية الفن عنده، ومعنى ذلك أن معارضة الاضطهاد هي المقياس الذي نميز به الفن الصحيح من الفن الزائف، وإذا كان تاريخ البشرية حتى الآن هو تاريخ الاضطهاد فإن الفن قد أخذ على عاتقه أن يقاوم هذا التاريخ. ففي النظام السوفياتي يقوم الفن بتصوير الواقع محاكياً للطبيعة متجاهلاً تماماً وظيفتها الأصلية بوصفه رفضاً للواقع وتباعداً عنه، وفي المجتمعات الرأسمالية يفقد الفن وظيفته الثورية إذ يندمج في المجتمع، ويتمسك بمبدأ الواقع، ويدعم النظام القائم بدلا من أن يحارب من أجل تجاوزه ولقد كانت الروح التجارية التي يعامل بها الفن في المجتمع الصناعي الرأسمالي هي الوسيلة الكبرى التي يتبعها هذا المجتمع لابتذال الفن والقضاء على ثورته يقول فؤاد زكريا على لسان هربرت ماركيز: "إن بيع الأعمال الأدبية الكبرى، والتسجيلات الكلاسيكية الرائعة، في الصيدليات وأسواق البقالة كما يحدث فعلا في الولايات المتحدة الأمريكية؛ قد أدى إلى تسطيحها وضياع قدرتها على الرفض والاحتجاج". ولذلك يمكن القول بأن ماركيز يرى أن الفن قوة ثورية رافضة للنظام القائم.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> فؤاد زكريا : هربرت ماركيز ، مرجع سابق ، ص ، ص ، 30 ، 31.

<sup>2</sup> كمال بومنير: قضايا جمالية من أصولها القديمة إلى دلالتها المعاصرة، منتدى للمعارف، بيروت، 2013، ص 11.

<sup>3</sup> فؤاد زكريا: هربرت ماركيز، مرجع سابق، ص، ص 82، 83.

ولقد عرف وحدد معنى الفن بقوله: "لم يكن ظهور الفن المعاصر (تندرج في كلمة فن، حسب رأيي جميع الفنون الكلاسيكية كما يندرج الأدب والموسيقى".<sup>1</sup>

ولذلك أراد ماركيز ان يجعل من الفن فاعلاً في مسألة تنوير الوعي عاملاً بذلك على خلق واقع جديد لمجتمع عالم جديد وذلك بإدراك إمكانيات التحرر والتعرف على ضرورتها، ومن ثم يصبح للفن القدرة على كشف التوتر القائم بين الراهن والممكن، بين حاجات حقيقية وحاجات زائفة، بين مبدأ الريح وعقلانية الظاهر لمجتمع السيطرة والضرورة الصناعي وضرورة بناء كون جمالي لا قمعي هذا ما يجعل للفن قوة إنتاجية اجتماعية جمالية وحتى سياسية الخلاقة عند ماركيز، ولقد ربط بين الفن والقدرة على التغيير، وأكد على كشف ما هو سلبي ولا إنساني في واقع حياة الإنسان، وذلك من خلال العمل على تعرية ما يقوم في واقع حياته من أمراض ومشكلات و أحكام والعمل على تجاوز وخلق وعي جديد، يعاد معه تشكيل حياة الفرد والمجتمع.<sup>2</sup> يقول هربرت ماركيز: "إن الفن شأنه شأن التقنية يخلق عالماً جديداً من الفكر والممارسة داخل العالم القائم بالذات ويضع هذا الأخير موضع اهتمام... وكلما كان المجتمع القائم لاعقلانيا كانت عقلانية العالم الفني أكبر".<sup>3</sup> ومن ثم يصبح الفن هو البعد الوحيد الذي يستطيع الإنسان المعاصر من خلاله تجاوز السيطرة التي تهدده من مختلف الجوانب والإشكال المختلفة فالفن هو الأمل الذي يمكن من خلاله المحافظة على استقلالية الفرد من طغيان عمل السلطة والهيمنة، والتعبير الفني والجمالي يشكل الوسيلة الأخيرة الممكنة لمقاومة الفرد وحماية وعيه من الاستلاب.<sup>4</sup> ولقد اعتبر ماركيز الفن شكل من أشكال

<sup>1</sup> هربرت ماركيز: نحو ثورة جديدة، مصدر سابق، ص 69.

<sup>2</sup> منيرة محمد: الرؤية النقدية للفن عند هربرت ماركيز، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد 36، العدد 5، سوريا، 2014، ص 71.

<sup>3</sup> هربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق: ص 259.

<sup>4</sup> جمال مفرج: الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الأخفاقات، الدار العربية للعلوم، 2009، ص 29.



النفى يقول ماركيز: "إن الفن سواء كان طقسياً أم لم يكن ينطوي على عقلانية النفي إنه في مواقفه القصوى الرفض الأكبر، الاحتجاج على ما هو كائن".، وهذا يوضح جلياً مكانة الفن في المجتمع باعتباره أحد أهم العناصر المساعدة على التغيير والمناداة بمجتمع ونظام مختلف عن النظام القائم بحيث يقول: "فالمصالون والحفل والموسيقى والأوبرا والمسرح موجودة لتخلق ولتوحي ببعد آخر للواقع." إن أهم ما كان يميز الفن هو عدم الخضوع للعقل العلمي أي أنه يخضع للعقلانية، متحرراً بذلك من كل ما هو تكنولوجي وعقل الفن منفصل عن عقل العلم، وهذا الفضل يعود إلى عقلانية السيطرة التي زيفت عقل الفن عن طريق دمج الفن بعالم السيطرة، ولقد كان هذا انفصالا بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى، ذلك لأن العلم كان يشمل من البداية على العقل الجمالي وعلى جموع الخيال يقول ماركيز: "أما اليوم فإن تقدم المجتمع التقني في سبيله إلى إلغاء هذه المسافة الجوهرية القائمة بين الفنون وبين نظام ما هو يومي... و الآثار الفنية والأدبية الموحية بتلك المسافة وهذا البعد قد اندمجت هي نفسها بالمجتمع."<sup>1</sup> ولقد عالج كمال بومير قضية الفن في الحضارة الغربية مؤكداً بذلك على موقف ماركيز قائلاً: "صحيح أنه العيش دون هذه البضاعة الثقافية التي لا تقدر سوى أن تخلق مزيداً من الإشباع والفتور من عند المستهلكين، إلا أنه ليس بمقدورها أن تفعل من نفسها شيئاً تجاه هذا التطور، ففي مجتمع تغلب عليه المضاربة تصبح وظيفة الإعلان الاجتماعية توجيه المستهلك إلى السوق وترويج السلع." ويتضح من هذا القول أن الفن في المجتمعات الغربية قد عرف تدهوراً، ومن بين الوسائل والآليات التي يتم توظيفها للتحكم في الفن وإدماجه في الوضع القائم وتوجيهه لخدمة الايديولوجيا السائدة، هو النشر الجماهيري للأعمال الفنية والأدبية عن طريق تحويلها إلى سلع تباع وتشتري في الأسواق والمحلات والمعارض، بشكل مبتذل بحيث يغلب عليها الطابع التجاري والنفعي الذي يبعد الفن عن حقيقته ووظيفته الاجتماعية أو الإنسانية، إذ تم إخضاع الفن

<sup>1</sup> هيربرتماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص، ص 99، 241.

إلى المؤسسات الاقتصادية والسياسية والثقافية وتوظيفه إيديولوجياً قصد الحفاظ على الوضع، بل وإعادة إنتاجه بكيفية تحقق استمرارية هذا الوضع الذي يكرس السيطرة، وبحسب هذه الأوضاع فالفن عند مفكري مدرسة فرانكفورت يمثل بعداً مغايراً لما هو قائم وسائد في المجتمعات الحالية وللسيطرة السائدة فيه، ولعقلانياتها الاداتية، ولهذا يمكن أن يقوم الفن بدور نقدي، لما يتضمنه من صور خيالية مغايرة لمقتضيات وآليات العقلانية الاداتية، ولهذا وحسب هؤلاء الرواد بقي الفن بعيداً ولم يتم استعادته كلياً داخل هذه العقلانية.<sup>1</sup>

وفي هذا السياق يقول هيربرت ماركيز: " يتضمن الخيال الفني حركة الرفض الكبير من حيث أنه حافظ على تلك التطلعات التي كبتها العقل، والتي يمكن أن تكون فيها الصورة اللامعقولة للحرية معقولة."<sup>2</sup> لهذا فإن الفن بنقده واحتجاجاته على هذا الواقع يحاول أن يغير العلاقات الاجتماعية المتشعبة، ويحقق أبعاداً جديدة للوجود لا يكون فيه هذا الوجود خاضعاً لمبدأ الواقع القائم ومؤسساته القمعية، ويقدم ماركيز مجموعة من الأمثلة الفنية النموذجية تتمثل في أعمال برتولت بريشت وفرانز كافكا فالعمل الفني عند هؤلاء يقوم بوظيفة نقدية تجاه الوضع المأساوي الذي أصبح يعيشه الإنسان المعاصر في المجتمعات الغربية، وهو يأخذ على عاتقه نبذ ما هو سائد في هذه المجتمعات، كما أنه يعمل على تعرية وفضح ما يجري فيها، كافكا مثلاً قدم روايته الأدبية التي كانت لا تهدف إلى تحقيق هذه الوظيفة النقدية للفن المتمرد الراض للتصالح مع الواقع القائم الذي لم يعد يطاق اليوم.<sup>3</sup> الذاتي عن العلاقات الاجتماعية القائمة، وبحكم استقلاله الذاتي هذا يقف الفن موقف المعارضة من هذه العلاقات، وفي الوقت نفسه يتجاوز هكذا يمد الفن الوعي السائد والتجربة المادية." لقد رأى ماركيز أن التفكير في عالم أكثر تحراً يمكن أن تتحه

<sup>1</sup> كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركايمر إلى أكسل هونيث، مرجع سابق، ص، ص 77 .78

<sup>2</sup> هيربرت ماركيز: الحب والحضارة، مصدر سابق، ص 14.

<sup>3</sup> كمال بومنير: مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 76.

التجربة الفنية، وهي تمثل عامل محوري في إرساء عقلانية بديلة غايتها إخراج الإنسان من المأزق الذي وضعته فيه حضارة القمع، حيث يقول: "يفضي المنطق الداخلي للعمل الفني إلى بزوغ عقلانية مغايرة وحساسة مغايرة تختلف عن العقلانية والحساسية المندمجين بالمؤسسات الاجتماعية السائدة."<sup>1</sup> إن تتبع كيفية التحرر التي يقترحها ماركيز يجد اعتماده على عامل الذاتية في كل فعل تحرري فيتخذ من قوتها عنصراً أساسياً للتمرد على الواقع الاجتماعي القائم: " فالفن يتجاوز الواقع المباشر يحطم الموضوعية المتشائمة للعلاقات الاجتماعية القائمة ويفتح بعداً جديداً للتجربة، إنه يبعث الذاتية المتمردة." حيث أن هذه الذاتية يجب أن تمتلك القدرة على التفكير السلبي والقدرة على الرفض والنقد، ويتبين أن ماركيز يلجأ دائماً إلى قوة الفكر النقدية كأساس معرفة وكأداة لتجاوز قيود السيطرة، ولقد حدد ماركيز غاية الفن تمثلت في خلق وعي جديد يسمح للإنسان بالتحرر من الوجود الوظيفي الأداة الذي هو تأدية دور اجتماعي فرض عليه فرضاً، وأن غايته في تحرير إمكانات الإنسان الذاتية من حساسية جديدة مع تبني الفكر النقدي لذلك يقول: "دعوة الفن هي أن يكون إدراكاً للعالم ينفر الأفراد من وجودهم الوظيفي ومن أدوارهم الاجتماعية، دعوة الفن أن يعتق الحساسية والخيال والعقل في مجالات الذاتية والموضوعية."<sup>2</sup> لقد اعتبر ماركيز ضرورة بناء أو إصلاح كل فرد لذاته، فالفن عنده ليس التحرر وإنما هو وسيلة أو أداة من أجل التحرر ولن يستطيع الفن أن يقوم بدوره ما لم يصلح الأفراد يقول: "الفن لا يستطيع أن يغير العالم لكنه يستطيع الإسهام في تغيير وعي وغرائز الرجال والنساء الذين يمكن لهم أن يغيروا العالم."<sup>3</sup> كما اعتبر ماركيز أن الخيال عامل رئيسي وذاتي في العملية الفنية، ويملك إمكانية مناهضة مبدأ الواقع ومناهضة العقل، يستبعد ماركيز الطابع الإمتثالي للفن كونه يستمد طاقته

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: البعد الجمالي نحو نقد النظرية الجمالية الماركسية، ص - ص 7، 8، 18.

<sup>2</sup> المصدر نفسه: ص، ص 20، 21.

<sup>3</sup> هيربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، المصدر نفسه: ص 45.

المبدعة من إيمان الذات بالوظيفة العليا للعمل الفني، وهي أبعد من أن تكون وظيفة تأييد وخضوع، والفن الأصل لا يجب أن يكون وسيلة لتأييد ما هو واقع، بل من الضروري أن يحتفظ على الدوام بقدرته على تجاوز الواقع، ومن هنا لا يمكن أن يكون حبيس نزعة إيديولوجية معينة، وباعتبار أن هيربرت ماركيز واحد من أهم رواد الجيل الأول من مدرسة فرانكفورت، فقد تأثر بالفيلسوف والشاعر الألماني الكبير فريدريش شيلر الذي كانت أعماله الفلسفية والفنية تدور حول مسألة البحث عن سبيل تحرير الإنسان من الظروف اللاإنسانية التي بدأ يعرفها في الأزمنة الحديثة ضمن السياق الحضاري الغربي منذ بداية القرن 18، وللخروج من الوضعية المزرية وغير اللائقة التي لحقت بالإنسان ذهب شيلر للقول بأن البعد الجمالي هو الذي يمكن أن يقود الإنسان إلى الحرية الحقيقية وإلى السعادة الإنسانية المنشودة يقول شيلر: "لابد من تقديم الجمال وإبدائه بوصفه العلة الشارطة الضرورية للإنسانية". ففي الحالة الجمالية، يشعر الإنسان بذاته وأن إنسانيته تفصح عن نفسها بوضوح وتكامل، لذلك يقول: الجمالية هي وحدها التي تستطيع أن تجعل من المجتمع أمراً حقيقياً بالفعل، طالما أنها تعزز الإرادة الكلية من خلال طبيعة الفرد. " ولقد أكد شيلر على أهمية ودور الجمال والفن في انتقال الإنسان إلى الحياة المختصرة التي يحقق فيها سعادته وفي رفعه إلى المستوى الأخلاقي الذي يتحقق فيه الانسجام والتوازن بين الجانب المادي والفكري والروحي.<sup>1</sup> وليس من شك أن ماركيز استفاد من شيلر في هذه المسألة من حيث أهمية البعد الجمالي في حياة الإنسان حيث يقول ماركيز: "إن كتاب رسائل حول التربية الجمالية للإنسان لفريدريش شيلر، يعتبر محاولة هامة لإعادة بناء الحضارة، بالاستناد إلى القوة التحريرية للوظيفة الجمالية، لذلك اعتبرت هذه الأخيرة متضمنة إمكانية مبدأ جديد للواقع."<sup>2</sup>

<sup>1</sup> كمال بومنير: مقاربات في الخطاب النقدي لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص، ص 80، 81.

<sup>2</sup> هيربرت ماركيز: الحب والحضارة، مصدر سابق، ص 82.

لقد أطلق ماركيز على نعت "جمالي" لفظ إستاطيقي، معتبرا بأنه وجداني وينبعث من الحواس وأن وظيفة الجمال تتطابق مع وظيفة الفن حيث يقول ماركيز: "إن الجميل ينبثق، بقدر ما هو موضوع شهرة، من مجال الغرائز البدنية: الجنس والهلاك وكل تضاد بين اللذة والرغبة يمحي ضمن الأسطورة، ومن شأن الجمال أن يضبط العدوان أن يوقف المعتدي ويجمده".<sup>1</sup> وهذا ما يؤكد على أن وظيفة الجمال شأنها شأن وظيفة الفن ألا وهي السعي نحو تحرير الإنسان من عبوديته، ومن سيطرة العقلانية الادائية واعتبر أن الجمال هو الشرط الضروري للإنسانية لأن هذه الملكة لا تزال إلى حد بعيد محتفظة بحريتها واستقلالها تجاه مبدأ الواقع السائد والذي يخرج عن نطاق سيطرة العقل ويقول هيربرت ماركيز في شأن ذلك: " يمكن أن يفيدنا البعد الجمالي على نحو ما، في تخمين ما يكون عليه مجتمع حر، ففي عالم تكف الصلات الإنسانية عن أن تكون الوسائط فيها بعد، علاقات تجارية ، ولا تكون بعد قائمة على الاستغلال أو التنافس، يجب أن تكون الحساسة متحررة من جميع المسرات القمعية في المجتمعات المستعبدة، وأن يكون في وسعها التطلع إلى أشكال من الواقع ووجوه لم تكن حتى اليوم موضوعا إلا للتصور الجمالي".<sup>2</sup>

ولهذا اعتبر ماركيز أن البعد الجمالي الإستاطيقي بعد تحرر و إنعتاق الإنسان المعاصر، وبهذا المعنى تأتي الجمالية خلاصا من العقلانية الادائية التي أحكمت قبضتها على الإنسان وهيمنت على أبعاده الداخلية والخارجية، ومن ثم فإن الوظيفة الأساسية للجمالية تقوم على نقد ما هو قائم داخل المؤسسات السياسية التي تكرر السيطرة قصد تجاوز الوضع الإنساني، وخلق وضع جديد يحقق فيه البشر حريتهم وسعادتهم، وبذلك ستكون الجمالية الجديدة ثورية، ما دام أنها تمارس عملية النقد والاحتجاج على ما هو قائم، وترسم صور

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: نحو ثورة جديدة، مصدر سابق، ص 52.

<sup>2</sup> المصدر نفسه: ص 53.

للتحرر الإنساني.<sup>1</sup> يقول هيربرت ماركيز: "إن الحساسية الإنسانية في حال تمرد على أوامر العقل القمعي، وهي تناشد منح سلطة محسوسة للخيال."<sup>2</sup> وهذا أن الجمالية بما تتضمنه من صور خيالية مغايرة نوعياً لمقتضيات العقل الأداتي، قد بقيت حرة إلى حد كبير تجاه مبدأ الواقع وعقلانية المسيطرة، وذلك أن هذه الصور هي في حقيقة الأمر نشاط ذهني خلاق ومبدع، وهذا ما سيفتح بعداً جديداً في الواقع القائم الذي يمكن أن يحقق فيه الإنسان حريته وسعادته وهذا لا يتم بصورة مباشرة، لأن علاقة الفن بتغيير الواقع هي بالضرورة غير مباشرة، إنه يسهم في تغيير هذا الواقع من خلال رسم صورة التحرر الإنساني وهذا ما يجعل الفن يتسم بالطابع السياسي التجاوزي الخيالي وعلاقته بالواقع.<sup>3</sup>

وكما أن اللغة هي حاملة لثقافة المجتمع وحضانتها، فإن اللغة عند ماركيز شرط لازم لتفعيل عمل الفن أو كما اصطلح عليه بالحساسية الجديدة ووسيلتها لتحقيق ثورة في الوعي والإدراك والتمرد على العقل القمعي المسيطر لذلك يقول هيربرت ماركيز: "الذهن، العقل، الوعي، الفكر، الحس إنما هي عناصر متكاملة لتشكيل ذاتية الذات، أي الحرية جوهر الوجود الإنساني وغايته."<sup>4</sup> لقد ربط ماركيز بشكل مباشر بين اللغة والفن على

تنوير الوعي والمساهمة في تحرير الواقع القمعي وتحقيق التغيير، وقيام مجتمع الحرية واشترط أن تكون هذه اللغة ذات طبيعة نقدية أي لغة الجدل غير لغة العقل الأداتي ويقول ماركيز: "إن النفي الجذري للنظام القائم ونقل الوعي والحساسية الجديدين يتوقفان على وجود لغة خاصة بهما، وذلك على نحو تزداد حتميته بمقدار ما هي قضايا التواصل قيد احتكار المجتمع ذي البعد الواحد وتحت رقابته." ويقول ماركيز في موضع آخر: "تحتاج الحساسية الجديدة والوجدان الجديد اللذين يعود إليهما تصور هذا التجديد

<sup>1</sup>كمال بومنيير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 83.

<sup>2</sup>هيربرت ماركيز: نحو ثورة جديدة، مصدر نفسه، ص 57.

<sup>3</sup>كمال بومنيير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 85.

<sup>4</sup>هيربرت ماركيز: فلسفات النفي، مصدر سابق، ص 16.

و إشادته تحتاجان إلى لغة جديدة تمكنها من تعريف القيم الجديدة، ونقلها إلى الآخرين لغة بأوسع معنى الكلمة تشمل الألفاظ والصور و الإشارات والنبرات. "ففي قدرة تلك اللغة وعلى لسان أبطال رواية أو عمل مسرحي أو خلال أنشودة أو قصيدة أو مقطوعة موسيقية على إبراز واقع الألم والبؤس والقهر القائم، والكشف عن مختلف أشكال السيطرة والقمع والرقابة التي تحكم ذلك الواقع ومعها العمل على إذكاء روح الاحتجاج والتمرد عليه، وبث روح الأمل والتفاؤل بإمكانية التغيير.<sup>1</sup> إلا أن اللغة في المجتمع التكنولوجي المتقدم أصبحت لغة توحيد وتوحد؛ توحد أكثر مما تبرهن ، تستبعد من تراكيبها ومفرداتها كل الأفكار والمفاهيم النقدية المتعالية المناهضة للواقع القمعي، تموه الحقيقة وتزيف المضمون كالقول مثلا هذا مخزنكم، هذا صنع خصيصا لكم، هذه صفحتكم... إلخ من المفردات والجمل التي تتخذ فيها لغة الناس العاديين بلغة السياسيين بلغة الإعلان، وتتحول الجمل والمفاهيم إلى صيغ من صيغ التنويم المغنطيسي، تفرض نفسها من كثرة تكرارها على فكر من يتلقاها، وبالتالي فقدت اللغة رسالتها الحقة، لذلك يدعو ماركيز إلى ضرورة استرجاع اللغة وظيفتها الحقيقية، من أجل أن تساهم في تغيير الواقع المعاش مستبعدة بذلك كل أشكال القمع والتسلط.<sup>2</sup>

وكما أن للغة علاقة بالفن، وكان لها مساهمة ضرورية لأجل تغيير الواقع المعيش فإن تربية الفرد تربية جمالية كذلك ستحرر الإنسان وقدراته العقلية والنفسية والفيزيولوجية من أي ضغط كان ماديا أو معنويا، خارجيا أو داخليا، ذلك أن الفن هو التعبير عن الحرية وأن الجمال في الفن هو ممارسة تلك الحرية، ولقد وجد هيربرت ماركيز في التربية الجمالية التي حمل لواء التبشير بها الفيلسوف الألماني فريدريك شيلر في أواخر القرن 18 الشكل الأمثل للتعبير عن رغبات الأفراد في شتى المجالات و أولهما ضرورة تغيير الوضع القائم و التمتع بحياة أفضل من التي يعيشونها لذلك يقول ماركيز: "إن الفلسفة الجمالية المنهجية قد استوعبت العلاقة

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز : فلسفات النفي ، مصدر سابق ص، ص 63، 61.

<sup>2</sup> منيرة محمد: الرؤية النقدية للفن عند هيربرت ماركيز، مرجع سابق، ص 76.

بين الجمال و الحقيقة في فكر التربية الجمالية للجنس البشري "ولعل هذا يوضح جليا ذلك الدور الفعال الذي تلعبه التربية الجمالية في نشوء جيل واعى للحقيقة المزيفة التي تحيط به ،و ذلك أن الفن بعرضه الجميل ومعه تربية جمالية تغرس في النفوس والعقول قيم وأفكار جمالية متعالية، إنما يحولان الجمال إلى قوى فاعلة وإرادة تعبر عن ذاتية الذات الحرة ،وتمكنها من أن تفرض ذاتها على العالم ، وهو ما يجعل الفن عند ماركيز قوة حية تساهم تحت هذا الوجه الفني أو ذاك الشعر الموسيقى... إلخ في وضع الأسس السلمية لبناء وعي جديد يقيم التوازن بين التجربة والعقل، أي تساهم في تكوين البنية العقلية لذات جمالية جديدة قابلة للتطور والتقدم بتغير الظروف والأحوال الاجتماعية، الاقتصادية... إلخ وقادرة على إنتاج تصورات جديدة لواقع حضارة لا قمعية جديدة ،فالفرد حسب ماركيز الذي تربي على التربية الجمالية ذاتها وأثرت بالمضمون الجمالي روحه، هو فرد يملك حسب أدوات معرفية تساعد في تشكيل وجوده بما يتناسب وطبائع وجوده الحر وفي صدد ذلك يقول ماركيز: "يستمتع بالجمال، الخير، الإشراق، ويعيش التحرر وهو يفهم ويجعل الفهم يواجهه أيضا ويستجيب لغرائز ومطالبه ويجري إختراقا للتشيؤ".<sup>1</sup>

وعليه فإن الأفراد وبفضل التربية الجمالية يصبحون قادرين على تصور دولة كغاية لهم وهم أدواتها، فإنهم يصبحون جديرين بأن يستحقوا الحرية و يصوغون وجودهم الحر بأيديهم، ويبنون عالما جديد لينسى فيه الفرد قيوده وحدوده ويؤكد ماركيز قائلا: "إن وسيلة الجمال تظهر الحقيقة وتضعها بعيداً عن المائل الحاضر". ولقد اعتبر ماركيز أن الفن والجمال هما أساس منبع سعادة الإنسان والوسيلة الوحيدة للوصول إلى الاتراكسيا قائلا في ذلك: " في وسيط الجمال المثالي وحده في الفن وحده يسمح بإنتاج السعادة كقيمة ثقافية في كلية الحياة الاجتماعية". كما يقول في نفس الصدد: "على أي حال فإن السعادة في مجتمع بلا سعادة لا يمكن إلا أن تكون عزاء لحظة جميلة في سلسلة متناهية من

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: فلسفة النفي، مصدر سابق، ص ، ص 129، 133.



التعاسة. "مؤكداً بذلك على ضرورة تغيير الوضع القائم من أجل أن يعيش الإنسان حياته الحقّة، ذلك لأن جمال الفن يتصارع مع الحاضر السيء.<sup>1</sup> ولقد اعترف فرويد بالدور الذي يلعبه الخيال في حياة الإنسان على اعتبار أنه يختزن الصور المتخيلة والتي تبقى تؤثر في سلوكه علماً أن هذه الصور لا تتفصل عن حقل اللاوعي، غير أن ما يؤكد عليه ماركيز هو ضرورة تفعيل هذه الصور المخترنة في الماضي، وأن تتوجه نحو المستقبل، ومن هنا تبرز أهمية التخيل ووظيفته النقدية للواقع القائم فالتخيل عنده يمثل قوة ذهنية متحررة من القوانين العقلية؛ والخيال هو العنصر الفاعل في الجمالية الذي سيحقق الاحتجاج عن الواقع وبالتالي تجاوزه، ويتمظهر دور الخيال كون أن الفن بدوره الاحتجاجي يشكل قفزة يمكن أن يطلق عليه مثالية خيالية وذلك لاعتبار أن التخيل يعبر ملكة مركزية للفكر وأن الجمال هو الشرط الضروري للإنسانية لأن هذه الملكة لا تزال إلى حد بعيد متحفظة لحريتها واستقلالها تجاه مبدأ الواقع القائم ولهذا السبب كان للتخيل مكانة بارزة في الفلسفة الماركيزية، ومعنى ذلك أن ملكة الخيال هي الوحيدة التي تمكن الفن من أن يلعب دور أساسي، وذلك كون أن الخيال متحرر من ذاته من جهة وكونه من جهة أخرى يمتلك استقلالية وهذا ما يجعل الفن يكون عن طريق الخيال.<sup>2</sup> ومن هنا يضع ماركيز الفن والجمال في قلب النظرية النقدية، فالفن يؤدي وظيفة التوازن في الشعور في بحثه عن اللذة والسعادة فالإنسان لا يمكنه أن يكون حراً في كل ما يمر به في حياته من تجارب إنسانية، ولعل هذا ما أورده حسن حنفي: "إن حرية الإنسان لا تظهر في باقي التجارب الإنسانية وغالباً ما ينجح الفن عندما تفشل الفلسفة والدين." ومعنى ذلك أن للفن والجمال دور لا يتوقف عند حدود تحقيق التوازن في الوعي الإنساني بل إن الفن يشكل أسبقية عن نماذج عديدة مثل الفلسفة والدين.<sup>3</sup>

### اليوتوبيا و الوظيفة النقدية للخيال:

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: فلسفة النفي، مصدر سابق: ص، ص، 125، 129.

<sup>2</sup> كمال بومنير: مقاربات في الخطاب النقدي لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص، ص 84، 85.

<sup>3</sup> حسن حنفي: مقدمة في علم الإستغراب مركز الكتاب للنشر القاهرة، 2009، ص 557.

## اليوتوبيا:

لفظة معربة وأصلها يوناني وهي توازي كلمة الخيال، و المثالي، حيث تشير دلالة المصطلح إلى العديد من المفاهيم والمعاني المتعلقة بأحكام القيمة المطلقة والنسبية، ويشير المعنى العام إلى اليوتوبيا باعتبارها الحالة الصحيحة التي ينبغي أن يكون عليها الوضع السائد حالياً. ويسود الاعتقاد أن أصل هذه الكلمة يعود إلى العصر اليوناني وإلى أفلاطون بالتحديد، من خلال الحلم الذي جسده في "الجمهورية"، في القرن الرابع قبل الميلاد وأطلق عليها شعار المدينة المثالية وكذلك كتاب السياسة لأرسطو وقد تجددت فكرة اليوتوبيا الأفلاطونية من خلال توماس مور، حيث استخدم هذا المصطلح لأول مرة سنة 1514، عندما قام بتسمية الرواية المتعلقة بالجزيرة الخيالية<sup>1</sup>؛ وتعني هذه الكلمة في اللغة: "لا مكان" ويشفع عليها مباشرة "لا زمان" كي تظل معلقة في الذاكرة، ويوجد ارتباط بين مصطلح يوتوبيا الإنجليزي، ومصطلح أوتوبوس ومعناه لا مكان، ومصطلح إيوتوبوس والذي معناه مكان الخير والفضيلة الذي ألفه أفلاطون. أما بالنسبة لصياغة الكلمة ودلالاتها، كان توماس مور هو أول من صاغ كلمة "يوتوبيا" أو "أوتوبيا" في نطقها اليوناني. وقد اشتقها من الكلمتين اليونانيتين "OU" بمعنى "لا" و"TOPOS" بمعنى "مكان"، وتعني الكلمة في مجموعها "ليس في مكان"، ولكنه أسقط حرف "O" وكتب الكلمة باللاتينية لتصبح "UTOPIA" وتعني "ذلك الشيء غير الموجود في الواقع".<sup>2</sup> ومنذ ذلك الحين بدأ استخدام اللفظ في جميع اللغات الأوروبية، وفي اللغة العربية تعني "نموذج لمجتمع خيالي مثالي يحقق فيه الكمال أو يقترب منه ويتحرر من الشرور التي تعاني منها البشرية"، وصارت للكلمة فيما بعد معانٍ مختلفة، نعني كل التصورات الخيالية المستقبلية أو احتمالات علمية فنية، وقد تطورت الكتابة اليوتوبية تطوراً ملحوظاً في القرنين السادس والسابع عشر، وبدأت

<sup>1</sup> حامد صدقي، عبد الله حسيني، و آخرون: رواية أصابعنا التي تحترق في ضوء نظرية يوتوبيا لولز، دراسات الأدب المعاصر، جامعة الخوارزمي، العدد السابع عشر، ص 48.

<sup>2</sup> جميل صليبا: الجزء الثاني، مرجع سابق، ص 24.

في أغلب الأحوال معارضة للتقدم الحضاري الذي كانت تعرفه أوروبا حينذاك، معارضة لحركة التصنيع والرأس مال، الإنتاج الحديثة ومناهضة للتحويلات الثقافية، ويرتبط تاريخ اليوتوبيا في القرن 19م بميلاد الحركة الاشتراكية، وفقدت الكلمة معناها الحقيقي وأصبحت تعني التفكير المضاد للتفكير العلمي، كما أشار إليها فردريك انجلز.<sup>1</sup>

إن اليوتوبيا تجعلنا ندرك أن ما لدينا ليس بالضرورة هو ما نريده، وما نريده ليس بالضرورة كل ما نستطيع الحصول عليه، ومن هنا يصبح الفكر التوتوري قابل للنقد طالما يختزل العقلانية في الواقع ويظل عاميا عن العناصر اليوتوبية غير متحققة الكامنة في السحر والشعوذة، وقد أيد هيربرت ماركيز هذه الفكرة، لكن الطريقة التي عالج بها هذا الموضوع كانت مختلفة اختلافا بالغا. وذلك من خلال ما ورد في كتابه " الحب والحضارة"، محاولا أن يعبر عن الرغبات والآمال والخيالات المتحررة للإنسانية المقموعة منذ زمن بعيد، وكان ماركيز يعتبر أن استمرارية العالم كانت نتيجة القمع المفرط الذي فرضه المجتمع الصناعي المتقدم وهو قمع نفسي بالدرجة الأولى، وذلك من خلال الشعور بالذنب. ويكمن دور اليوتوبيا في إنكار كل ذلك، فهي تقدم أشكالا متسامية من النشاط الإبداعي الذي يربط بين الذات والموضوع ويحرر الرغبات الجنسية من كل القيود وفي اليوتوبيا يعاد تشكيل البشرية نفسيا، ومنه يتوقف الأشخاص عن رؤية بعضهم البعض بالنظرة الأداة، ويتقدم الناس إلى الأرباح ويصبح العمل لهوا، وتصبح السعادة مستدامة هذا ما يدفع بالقول أن الموت ليس امتدادا للحياة حيث يقول ماركيز: "تميل التقنيات لأن تصير فنا، ويميل الفن لتشكيل الواقع؛ حيث سيبطل التعارض بين الخيال والعقل، والقدرات العليا والدنيا، والفكر الشعري والعلمي. وسيبزرغ مبدأ واقع جديد يندمج في كنفه إدراك جديد وذكاء علمي غير سام لخلق عقلية جمالية".<sup>2</sup>

<sup>1</sup>مرجع نفسه: ص 55.

<sup>2</sup>ستيفن اريك برونر: النظرية النقدية، ترجمة سارة عادل، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012. ص 71

ومن هنا نجد أن فكرة ماركيز حول اليوتوبيا تعد نقطة الإنطلاق التي يمكن من خلالها مواجهة عالم التقدم والتقنية الجديد، فهي وجهة نظر محررة ومضادة للانحراف، والشعور بالسعادة دون خوف من الموت فكان ذلك عبارة عن الانطلاقة لبناء مثالية أخلاقية جديدة، ومن جهة أخرى فإن ماركيز قد انتبه إلى أن اليوتوبيا التي كان يروج لها كانت تعتمد على تناقض يحول دون تحقيقها فالأفراد الأحرار بالفعل هم من يستطيعون بناء مجتمع حر، وكان يدرك أن رؤيته كانت تخيلية بطبيعتها؛ ولهذا السبب فقد اتخذ من النظرية النقدية أساسا في فلسفته وتحليله للمجتمعات.<sup>1</sup> كما أن نظريته في إمكانية تغيير المجتمع الحالي إلى مجتمع أفضل كانت نظرة إيجابية، وهذا ما ورد من خلال كتابه "نهاية اليوتوبيا" فيؤكد إمكان الانتقال إلى المجتمع الجديد باستخدام التكنولوجيا المتقدمة في القضاء على اقتصاد الملكية الخاصة، والإنتاج من أجل الإنتاج. وإن ماركيز يسعى نحو أكثر من اتجاه للعثور على بدائل تصحح وتتجاوز الواقع لذلك قال بنهاية يوتوبيا المجتمع الصناعي المتقدم، واعتبر في الوقت نفسه أن ما تمنعه عقلانية السيطرة بمبرر الحلول اليوتوبية المستحيلة، أو الإمكانية غير القابلة للتحقق، فإنها عين الأفكار والبدائل التي تحقق تجاوز مبدأ الواقع، أي أن ماركيز رأى في ممنوعات هذه العقلانية إمكانات يوتوبية قابلة للتحقق وقادرة على إحداث التغيير الكيفي، وإخراج الإنسان من المأزق

الحضاري والذي تشوبه ممارسات القمع واللاحرية، حيث نجد ماركيز "يشير إلى أن هناك بعض الاتجاهات السياسية الفكرية التي يكون من صالحها بقاء الوضع القائم دون تغيير تستخدم مفهوم اليوتوبيا لوصف أي محاولة لنقد أو تجاوز الوضع القائم باعتبارها محاولة غير واقعية"، وتعارض قوانين الواقع والتاريخ". ومن هنا يظهر الاستخدام السيء لمفهوم اليوتوبيا في حين رأى ماركيز أن اليوتوبيا تمثل إمكانية تمنعها عقلانية السيطرة لعدم تحققها بل لكونها قد تهز النظام القائم، هي فكرة تتضمن بعدا تحرريا ويجب استبعادها من

<sup>1</sup> ستيفن إريك برونر: مرجع سابق، ص 72.

خلال تشويه مدلولها؛ ويرفض ماركيز هذا المعنى الأخير لليوتوبيا لأنه يهدف إلى إعاقة إمكانيات تاريخية معينة عن الظهور، ويقمع الطموح البشري، ويجمد إمكانية مستحيلة أو تقع خارج نطاق التاريخ كما يصورونها، بل هي إمكانية تاريخية وإنسانية بالمعنى الدقيق للكلمة".<sup>1</sup>

كما يكشف ماركيز التناقض الذي وقع فيه المجتمع الصناعي، حين روج لنموذج حياة الرفاهية ووقوعه في الزيف على أنه تمام الحقيقة، ولهذا ينتهي ماركيز من هذه الآراء المتفائلة والمعبرة عن إيمان عميق بقدرة الإنسان على صنع الفردوس الأرضي، إلى القول بأن نهاية اليوتوبيا أصبحت أمراً ممكناً، ويعني بذلك أن ما تطرحه قوى الثورة المضادة على أنه يوتوبيا أو نوع من الوهم هو في الحقيقة إمكانية واقعية وقابلة للتحقق.

إن كل ما يسعى إليه ماركيز يحدد تصوراتته وذلك باعتماده على مجموعة من المبادئ كالرفض الأكبر، ضرورة انتقاد كل ما هو قائم، وكل ما يجعل من ذات الإنسان ذات ذا بعد واحد، كل هذه التصورات تحدد فهمه لليوتوبي حيث نجده يرفض يوتوبيا المجتمع الصناعي القائم، وإذا أردنا أن نفهم معنى اليوتوبيا عند ماركيز فعلينا أن نحيط أنفسنا علماً بتصوره الجديد عن الإنسان والعقلانية الجديدة والحساسية الجديدة والأخلاقية الجديدة ومعنى التاريخ ومعنى أو اللاممكن لكن ماركيز أراد أن يطبقها لتغيير واقع المجتمع

الذي وقع في الزيف بسبب التقدم التكنولوجي، ولهذا أمكن القول أن معنى اليوتوبيا عند ماركيز له علاقة بوجهة نظره في علاقة العلم بالفلسفة والعلم باليوتوبيا، وكذلك علاقة العلم والتكنولوجيا بالفن، وبعبارة أخرى لا يمكن فهم معنى اليوتوبيا عند ماركيز إلا في إطار نظريته عن الحضارة الإيروسية أي الحضارة اللاقمعية أو حضارة الارتواء. ومن هنا فإن التصور اليوتوبي عند ماركيز هو تصور قابل للتحقيق لأن الظروف أصبحت أكثر ملاءمة لتجاوز اللاممكن، فماركيز يعتبر أن للحضارة المعاصرة أمل في إمكانية التغيير في المعالم

<sup>1</sup> حسن محمد حسن: النظرية النقدية عند هيربرت ماركيز، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص 143.

التي أسقطتها التكنولوجيا في الزيف، والوهم ولهذا يقول: "إن اليوتوبيا تصور تاريخي يهين مشاريع التحول الإجتماعي التي نعتبر أنها مستحيلة لكن لأي سبب هي مستحيلة؟ على العموم عندما نتحدث عن اليوتوبيا، نسمع باستحالة تحقق مشروع مجتمع جديد لأن العوامل الذاتية والموضوعية للوضع الاجتماعي المعطى يتعارض مع تحويله، فنقول إذن أن الوضع لم ينضج بعد." <sup>1</sup> أي أن كل ما كان ينظر إليه بأنه شيء لا يمكن تحقيقه في الواقع، عندما كان تفكير الإنسان تفكير ما قبل تكنولوجياي فقد أصبح اليوم بفضل التفكير اليوتوبي شيء يساوي الممكن، وبهذا المعنى وحسب ماركيز فإن اليوتوبيا تساوي الممكن، وأن استعمال مفهوم اليوتوبيا يكون فقط عند تعارض الفكرة المقترحة مع القوانين العلمية المثبت صدقها. ومن هنا يمكن أن نعتبر أن مفهوم اليوتوبيا عند ماركيز هو مفهوم بعيد عن الزيف كم كان ينظر إليه من قبل فقد أصبح مفهوم أساسي في تغيير واقع المجتمع التكنولوجي فهي تحقق حضارة اللاقمع أي حضارة ذات بعد إنساني، حيث يملك هذا المفهوم كل الإمكانيات التي تساعد على تحقيق التغيير ومنه فاليوتوبيا تفتح أمام الإنسان المعاصر مجال جديد حيث تجعله يمارس الحرية ويشعر بالسعادة في معناها الحقيقي. واليوتوبيا عند ماركيز ليس خيال مضلل للذات

<sup>1</sup>قيس هادي أحمد: الإنسان المعاصر عند هاربرت ماركيز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص174.

**الوظيفة النقدية للخيال:**

إن الخيال أو التخيل هو عبارة عن القدرة على إدراك الأشياء أو الأحداث في غايتها، أو كما يمكن أن تكون، ويشير التخيل أو ربما يعود إلى أشياء عديدة مثل: الوهم، والبراعة، أحلام و بالعودة إلى المجتمع الصناعي المتقدم الذي قام على أساس عقلائي واعتبر أن العقل هو القوة التي تسير حياة المجتمعات وتنظم مسيرة النمو والازدهار في جميع المجالات، لكن العقل ما لبث أن أصبح وسيلة سيطرة فلم يعد للخيال مكانة أو أهمية في رسم صور الحاضر أو المستقبل. وينقسم مجال استخدام الخيال إلى نوعين هما: المجال العلمي والتقني: حيث يتم استخدام الخيال من قبل العلماء والمخترعين، ويتم توظيفه في أبحاثهم العلمية والتقنية للوصول إلى اكتشافات جديدة و في هذا المجال لا يسمح بخروج الخيال عن اطار الواقع هذا المجال الفني: يستخدم من قبل مخرجي السينما أو الرسامين والمبدعين والممثلين، وهذا النوع من الخيال لا يتقيد بالقوانين العقلية والمنطقية كما يمكنه أن يتمرد على جميع الأنظمة ويتفكك من القيود ويخرج عن نطاق المعقول؛ لهذا السبب قد ضيق مجال الخيال الفني في المجتمعات الصناعية المتقدمة وسمح بنشاط الخيال العلمي التقني وذلك لما له الواقع في اللاوعي<sup>1</sup> الذي يمثل عنده تلك المنطقة العميقة لشخصية الإنسان. والتي تتضمن بدورها صور الماضي من بينها صور الحرية، السعادة وكل الصور التي لم يتم تحقيقها على أرض الواقع وتبقى حبيسة اللاوعي والتخيل لكن ماركيز أكد على أنه يمكن أن نستدعي كل تلك التخيلات الفنية المحبوسة وتوظيفها بشكل عقلائي يسمح بتطوير الأفكار وتساهم بدورها في تنمية المجتمعات وذلك من خلال قوله: "إن القيمة الحقيقية للخيال ليست معلقة بالماضي فقط، بل وكذلك بالمستقبل، لما يستدعيه الخيال من صور، وخاصة صور الحرية والسعادة التي عمل على تحرير الواقع التاريخي ولهذا يرفض الخيال تلك القيود المفروضة على الحرية والسعادة، من طرف

<sup>1</sup> كمال بومئير: جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 181، 182.

مبدأ الواقع وفي رفضه نسيان ما يمكن أن يكون وما يجب أن يحدث تكمن الوظيفة النقدية للخيال.<sup>1</sup> والأمر الذي يؤكد عليه ماركيز هو ضرورة تفعيل هذه الصور وتوظيفها في ما يمكن الاستفادة منه في المستقبل، فالتخيل عند ماركيز يمثل قوة ذهنية متحررة من قيود اللوجوس، وبالرغم من تمرد الخيال عن العقل فهذا لا يعني الاستبعاد الكلي له، بل نجده يدعو إلى ضرورة تحقيق توازن بينهما، والنظر إلى الإنسان ككائن عاقل يستخدم العقل في كل خطواته فهو أيضا يستخدم الخيال باعتبار أن له وظيفة أساسية في تنظيم حياة الإنسان وذلك من أجل تخفيف سيطرت العقل على مصير الإنسان،<sup>2</sup>

وهذا ما أكد عليه فؤاد زكريا من خلال حديثه عن ماركيز الذي قال بإبراز دور الخيال في تحرير المجتمعات من القيود، وذلك بالتوسط بين الملكات العقلية والحاجات الحسية ومن هنا يتبين لنا أن ماركيز كان من بين الذين نشدوا بضرورة رد الاعتبار للخيال إزاء طغيان العقل.<sup>3</sup> وذلك لما للخيال من دور في إخراج الصور المسجونة في اللاوعي إلى الواقع المحسوس. عن طريق حرية التخيل ولهذا السبب فقد تزايدت المخاوف تجاه الخيال الأمر الذي دفع بضرورة وضع رقابة عالية من قبل المجتمع القائم والسلطات القمعية لأن الحرية التي قد يحظى بها الخيال قد تشكل تهديدا مباشرا للمجتمع ومنه فيجب أن تبقى وظيفة الخيال محصورة في الأحلام فقط. وقد بين ماركيز في كتابه "إيروس والحضارة" أهمية الخيال من خلال التراث الأسطوري واتخذ من بروميثيوس نموذجا، والذي يعتبر رمز ثقافي في الحضارة الغربية، فهو في الأسطورة اليونانية ذلك البطل الذي يجسد هيمنة العقل ومنطقه السيطرة، والنموذج الثاني وهما: الوجه المقابل لبروميثيوس ونرسييس وهما رمزان للخيال وهذان النموذجان كانا يقفان في وجه سيطرة العقل التي كانت غايته الأولى من خلال المعرفة هو أن يتوصل إلى ما يمكن أن يحقق السيطرة فبدأت سيطرته تفرض

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: الحب والحضارة، مصدر سابق، ص 135.

<sup>2</sup> كمال بومنبر: جدل العقلانية، مرجع سابق، ص 183.

<sup>3</sup> فؤاد زكريا: هيربرت ماركيز، مرجع سابق، ص 51.



على الطبيعة وبعدها فرضت على الإنسان ذاته أي سيطرت الإنسان على أخيه الإنسان، ومن هنا كان دور كل من نرسييس و أورفيوس لا يهدف للعمل والإنتاج وأداء بل كان يرمز ويهدف إلى الفرح وصوتها ليس الصوت الذي يأمر لكنه يغني، وفعلها يرمز إلى السلام، أي أنهما أسطورة تدعو للتمرد على الواقع القائم والسيطرة المفروضة<sup>1</sup>

وقد اتخذ ماركيز من هذه الأسطورة نظرا لما يمكن أن تقدمه هذه النماذج للإنسان المعاصر لإعادة الاعتبار لما تم رفضه من طرف المجتمعات الصناعية المتقدمة من حرية ، والسعادة، التي لم يكن لها مكان في هذه المجتمعات حيث يقول: " إن الصور الأورفية - النرجسية هي صور الرفض الكبير: أي ذلك الرفض الذي يهدف إلى التحرر، فأورفيه هو نموذج الشاعر باعتباره محررا ومبدعا الذي يقيم في العالم نظاما خاليا من القمع وفي شخصه يتحد كل من الفن والحرية والثقافة فهو بهذا المعنى شاعر الخلاص"<sup>2</sup> ومن هنا نجد أن الحضارة الغربية بالطبيعة قد مجدت بروميثيوس وجعلت منه بطل استطاع أن يتغلب على الآلهة ، واستطاع أن ينشأ حضارة قامت على العمل والمعرفة، أما أورفيوس ونرسييس فلم جعلتا منهما بطلين ذلك لأنهما يمثلان الهروب من العمل والتقدم الإنساني الأمر الذي جعل ماركيز يعتبر أن هذا التمجيد لبروميثيوس هو عبارة عن تمجيد لفكرة السيطرة والقمع، ليس فقط على الطبيعة بل وحتى على الإنسان ودعا للأخذ بالصور النرجسية والأورفوسيه بالرغم من أنهما عبارة عن صور خيالية غير واقعية .

ففي حضارة "الإيروس" هذه تصبح للخيال الغلبة على العقل. ذلك لأن العقل كان الأداة الرئيسية في يد حضارة الكبت والقهر، وهو الذي أتاح للمجتمع الصناعي أن يحقق أعظم انتصاراته في ميدان الإنتاج، وأن يتسلط على كل جوانب حياة الإنسان ويوجهها في خدمة أغراض الريح والتوسع الاقتصادي. لذلك كان من الضروري استعادة التوازن بين "الإيروس"

<sup>1</sup> هيربرت ماركيز: الحب والحضارة، مصدر سابق، ص 142.

<sup>2</sup> مصدر نفسه: ص 146.

و "اللوجوس"، لحساب الأول ولكن دون إنكار تام للثاني. وعلى هذا النحو يصبح الإنسان كلي الجوانب بعد أن كان أحادي البعد.<sup>1</sup>

ومن هنا فإن ماركيز قد اعتبر أن للخيال مكانة هامة يستطيع الإنسان أن يصل إلى واقع آخر بعيدا كل البعد عن الواقع الذي أصبح عبارة عن حلقة داخل سلسلة من السيطرة العلمية والتجريبية ، وقد وجه ماركيز الاتهام إلى العقلانية التكنولوجية بأنها عملت على تشويه وتحديد قدرات الإنسان ، من ناحية الخيال حيث يقول: "لقد ضيق المجتمع النطاق الرومانسي للخيال، بل ألغاه وأرغم الخيال على العمل على أسس جديدة بحيث تترجم إلى إمكانيات ومشاريع تاريخية، بيد أن الترجمة تأتي رديئة مشوهة على شاكلة المجتمع الذي يباشرها"<sup>2</sup>

ومن هنا فإن ماركيز يكشف الكيفية التي استحوذت بها عقلانية المجتمع القائم على الخيال، حيث يقول: "ولكن عندما أمسك التقدم التقني بناصية الخيال، طبع صورته بمنطقه الخاص وحقيقته الخاصة مقلصا ملكة الفكر الحرة، بيد أنه قلص في الوقت نفسه المسافة بين الخيال والعقل، وبذلك أصبحت الملكتان المتناحرتان مرتبطتين إحداهما بالأخرى ارتباطا مصيريا، وما عدا الخيال ينشط إلا تبعا للاحتمالات التقنية التي يمكن أن تحقق في المستقبل بفضل قدرات الحضارة الصناعية المتقدمة."<sup>3</sup> وهذا يبرز رفض ماركيز الطريقة التي توظف بها العقلانية التكنولوجية فتشوه العقل والخيال معا. والقمع الذي بات يفرضه الإنسان على أخيه الإنسان، فالخيال هو الملكة التي تحرر الفرد وتجعل منه شخص سعيد سعادة حقيقية. لكن تحقيق مثل هذا التفكير الذي يصبو إليه ماركيز ليس بالأمر اليسير لأنه يتميز بالفكر اليوتوبي أو التفكير المثالي.

<sup>1</sup> فؤاد زكريا: هيريت ماركيز، مرجع سابق، ص 47.

<sup>2</sup> هيريت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق، ص 259.

<sup>3</sup> هيريت ماركيز، الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سابق: ص 259.

وأن إصرار ماركيز على إعلاء دور الخيال الذي يقوم بالتوسط بين الملكات العقلية والحاجات الحسية ذلك أن الإنسان باختصار، كائن جمالي بشرط أن تفهم الصفة بمعنى يقترب من اشتقاقها الأصلي في اللغة اليونانية، أي بمعنى اتجاه الإنسان إلى الوعي الحسي بنفسه وبالعالم في توافق؛ وهكذا يظهر ماركيز هنا على أنه مفكر آخر من دعاة "العودة إلى الطبيعة"، ومن أنصار رد الاعتبار للحب، والخيال والعاطفة إزاء طغيان العقل، والفارق الوحيد بين دعوته إلى اتخاذ القيم الجمالية هدفاً أسمى للحياة الخالية من الكبت، بين دعاة الطبيعة التقليديين هو: أن نزعة ماركيز الطبيعية ملائمة لعصر التكنولوجيا الرفيعة.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> فؤاد زكريا: هيريت ماركيز، مرجع سابق، ص 51.

## ملحق الشخصيات

في الأخير يمكننا أن نصل إلى خلاصة نستنتج من خلالها أهم النقاط التي تمثلت في فكر هيربرت ماركيز حول مسألة العقلانية التكنولوجية، أو التقنية التي مثلت البعد الأساسي في تطور الحضارة الغربية، حيث توصلنا إلى مجموعة من النتائج وأهمها: أن فكر ماركيز حول مسألة التقنية لم يكن فكراً متناقضاً كما يزعم البعض؛ فعندما اعتبر أن التقنية من جهة عبارة عن وسيلة سيطرة على الإنسان المعاصر داخل المجتمعات المتقدمة صناعياً وعلمياً، ومن جهة أخرى عندما اعتبر أن التكنولوجيا هي وسيلة تحرر الإنسان من التفكير البدائي. فهيربرت ماركيز لم يستهدف دعوة الإنسان إلى التنازل عن تقدمه الاقتصادي، والتكنولوجي، فهو لا ينتمي إلى ذلك النمط من المفكرين الذين ينادون بالعودة إلى عصور ما قبل التكنولوجيا، وقد وجه نقده إلى التوجيه السياسي الذي كان يسير هذا التقدم من أجل تحقيق المصالح الخاصة وخاصة النظام الرأسمالي في الولايات المتحدة الأمريكية، الذي فرض سلطته وقمعه على العقول البشرية العاملة، بل أن المجتمع الإنساني الذي كان يحلم به ماركيز يفترض وجود مستوى عالٍ من التقدم التكنولوجي ولكن من خلال وضع الاعتبارات الاقتصادية والفنية حيث يجب أن تكون معنى هذا أنه يرغب في البحث عن حضارة جديدة تستوعب الحضارة القديمة في داخلها دون أن تلغيها تماماً وعليه يمكننا القول: لقد كانت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت وليدة الظروف السياسية والاقتصادية، وبالتالي فلم تكن محلاً للصدفة وإنما هي نتيجة للواقع الألماني في القرن التاسع عشر.

ومن خلال قراءة ماركيز لموقف ماركس من الرأسمالية فهو لا يختلف تمام الاختلاف معه بل إن كلاهما يتوجهان ضد الآليات اللبرالية، فقط الاختلاف هنا في عامل التغيير بين ماركس وماركيز.

كان لماركيز موقف من العقلانية التكنولوجية بحيث عرف في هذا الصدد بعداءه الشديد للسيطرة التكنولوجية التي جعلت من الإنسان آلة إنتاجية ليس إلا وبالتالي حرفت حرية الإنسان وفتحت مجالاً لتأسيس أشكال من الرقابة والتي غيرت نمطية حاجيات الأفراد.

## ملحق الشخصيات

اتخاذ التكنولوجيا طابع السيطرة، ولكن نجد ماركيز يشترط بوجود توجه تكنولوجيا بحسب الوقت المعاصر وأغراضه، أي وفق للحساسية الجديد لكي تتخذ الطابع التحرر.

كما نجده من خلال موقفه في هذه المسألة متأثراً بأستاذه هيدجر متجاوزاً الطرح الأنطولوجي، ومن خلال نقد ماركيز للنظرة التقليدية الماركوسية تجاوز العامل البروليتارية وحصر وظيفتها في نفي للأوضاع معتبراً أن طريق الطبقة العاملة مسدود ، وفي الوقت الراهن لأن التكنولوجيا حسبه أبطلت الرفض الثوري البروليتاري من جهة ، ومن جهة أخرى دفعت للاندماج فصار مطلبها الأساسي المساهمة في تسير مشاريع النظام لا التمرد عليه إن للفن القدرة على تحقيق تغيير جذري ، مبرزاً دور الذاتية و عدم حصل الجمالية في إطار طبقي محدد ومن ثم فإن ماركيز رفع من شأن الفن معتبراً إياه ذات وظيفة تحريرية متأثراً في ذلك بشيلر ، و يتخذ الفن عند ماركيز طابع الاحتجاج و النقد و التجاوز عن طريق ملكة الخيال. رفض هيرت ماركيز أن يكون التقدم الإنساني من جراء التقدم التقني لارتباط هذا الأخير بالسيطرة .وعليه يمكن القول بأن التقنية هي علم لها دور ريادي في تطوير حياة الإنسان و تسهيل عملية تكيفه في محيطه الخارجي إذ ساهمت هذه الاختراعات و الاكتشافات في تطوير الحضارة و نقل الإنسان من حياة البداوة إلى حياة الحداثة مما يصبغ العلوم و التقنيات بطابع الإفادة شريطة أن لا تتحول إلى وسائل تنفي الشخصية و تلغي الحرية و كرامة الفرد لأنه ما من شك أن كل تقدم علمي حامل في طياته لما هو سلبي و منافي للأخلاق ، و لما هو ايجابي و خاضع للمعايير الأخلاقية .فالتكنولوجيا ليست خيراً أو شراً مطلقاً بل علينا معرفة استعمالها و جعلها في خدمة الإنسان أي البشرية ، الجسد الحامل لمقومات الكرامة و الحرية.

# ملحق الشخصيات

## ملحق الشخصيات

**أرنست ماير:** (1904 / 2005)؛ ولد في الإمبراطورية الألمانية، وهو عالم بيولوجيا ألماني، فيلسوف وأستاذ جامعي يعتبر أحد أشهر علماء البيولوجيا في القرن 20، اهتم في علم التصنيف، وتاريخ العلوم، له العديد من المؤلفات، من بينها: **علم الأحياء التطوري، فلسفة البيولوجيا، توفي في الولايات المتحدة الأمريكية.**

**أرنست هيكل:** (1834 / 1919)؛ فيلسوف وعالم أحياء ألماني، مكتشف علم البيئة، كان طبيب ثم أستاذ لعلم التشريح المقلرن وكان من أوائل العلماء الذين اعتبروا أن علم النفس هو فرع من علم الفيزيولوجيا، ساهم في إدخال بعض مصطلحات البيولوجيا الحديثة، كالشعبة وعلم البيئة وقد وصف هيكل السياسة بالبيولوجيا التطبيقية.

**ألتر بنجامين:** ينظر صفحة؛ 67

**ألكسندر فون همبولت :** ( 1769 / 1882)؛ جيولوجي جغرافي، موسوعي، وعالم فلك، عالم نبات ألماني ولد ببرلين ويعتبر من السابقين الأوائل في علم البيوجغرافيا والأيكولوجيا كتابه الأساسي كوسموس المتكون في 5 أجزاء ولقد وصفه داروين بأنه أعظم عالم رحال على وجه الأرض.

**إريك فروم:** ينظر صفحة؛ 67

**إيان ويلموت:** 1944، هو مخترع من المملكة المتحدة، وهو عضو في الأكاديمية الوطنية للعلوم والجمعية الملكية، تعلم في جامعة نوتنغام

**تيودور أدورنو:** ينظر صفحة؛ 67

**جورج لوكاتش:** ( 1885 / 1971) ؛ من أهم النقاد الماركسيين الذين تناولوا العمل الفني من منظور سوسيولوجي، فيلسوف وكاتب وناقد، ولد في بودايست عاصمة المجر، حاول تجديد

## ملحق الشخصيات

الفكر الماركسي وإلقاء الضوء على جوانبه الثورية، عمل على إعادة الاعتبار للذات، كان عضو في الأكاديمية الألمانية للعلوم في برلين والأكاديمية الهنغارية للعلوم.

**جوزيف موراي: (1919 / 2012)؛** طبيب وجراح وأستاذ جامعي، جراح تجميل أمريكي، أجرى أول عملية نقل كلية من شخص بالغ إلى توأمه المتماثل سنة 1954.

جون جوردن: ولد 1933 هو عالم بريطاني مختص بعلم الأحياء التطوري، عرف بأبحاثه الرائدة في مجال النواة والاستساخ.

**داروين: تشارلز روبرت داروين (1809 / 1882)؛** عالم تاريخ طبيعي وجيولوجي بريطاني، اكتسب شهرته كمؤسس لنظرية التطور والتي تنص على أن كل الكائنات الحية على مر الزمان تتحدر من أسلاف مشتركة ويعد داروين من أشهر علماء الأحياء، ألف عدت كتب في ما يخص هذا الميدان

**سيغموند فرويد: (1856 / 1939)؛** اسمه الحقيقي سيغموند شلومر فرويد وهو طبيب نمساوي، من أصل يهودي، اخص بدراسة الطب العصبي، وهو مفكر حر، أسس مدرسة التحليل النفسي، اشتهر بنظريات العقل واللاوعي، وآلية الدفاع عن القمع، من أهم مؤلفاته: تفسير الأحلام، قلق في الحضارة، الشذوذ الجنسي، ما فوق مبدأ اللذة. توفي بمرض السرطان عن عمر يناهز: 83 عام.

**فرانسيس بيكون: (1561 / 1626)؛** فيلسوف ورجل دولة وكاتب انجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على الملاحظة والتجربة من أهم مؤلفاته: Essays , the elements of the law of england

**كارل ماركس: 1818؛** مفكر اقتصادي وسياسي ألماني، ولد في مدينة ترير، في حدود ألمانيا الغربية، كان رئيسا لتحرير صحيفة الراين 1842 التي كانت تهاجم الحكومة الألمانية بعنف، وتوثقت الصداقة بينه وبين فريديريك إنجلز ( 1820 / 1895)، سنة 1844 في



## ملحق الشخصيات

بروكسل، ومنذ ذلك التاريخ ارتبط اسمها معاً، وعملاً على إعادة تنظيم العصبة الشيوعية، كتب إنجلز المسودة الأولى لمنشور بعنوان البيان الشيوعي، فأعاد ماركس تحريره و نتيجة لذلك طرد من بروكسل. من أهم مؤلفاته:

**كلود برنارد: (1813 / 1878)؛** عالم فرنسي شهير يعتبر مؤسس المدرسة التجريبية العلمية وصاحب عدت بحوث هامة أدت إلى اكتشاف وفهم الوسط الداخلي كما يعتبر طبيب وسياسي وفساني، اشتغل في مجال الفيزيولوجيا والطب.

**ماكس شيلر: 1847؛** ولد في مدينة منشن ميونيخ في جنوب ألمانيا، درس الفلسفة في جامعة بيناو سنة 1910، ترك مهنة التدريس ليكون كائناً حراً وأقام في برلين من أهم مؤلفاته: في الدخل والحكم التقويمي الأخلاقي، في نظريات ونظرية مشاعر التعاطف وفي الحب والراهية. وأهم كتاب له: الصيورية في الأخلاق وأخلاق القيم الموضوعية، في عام 1919 عاد إلى التدريس في الجامعة ليكون ذا كرسي وبدأ يتجه خصوصاً إلى علم الاجتماع وسوسيولوجيا المعرفة فأصدر كتابه "دراسات في علم الاجتماع"، وفي نظرية النظريات في العالم."

**ماكس فيبر: (1824 / 1894)؛** ولد في برلين، كتب أول مقالاته وهو في 15 من عمره بعنوان تأملات في خصائص وتطور تاريخ الشعوب، في الأمم الجرمانية كان مهتماً بالسياسة، عين 1894، أستاذ كرسي الاقتصاد السياسي في جامعة فيورباخ.

**ماكس هوركايمر: ينظر صفحة؛ 67**

**نيتشه: (1844 / 1900)** ولد في ألمانيا ويعتبر من أشهر فلاسفة ألمانيا، اهتم في فلسفته بالأديان والأخلاق والثقافة، كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر، ولقد كان نيتشه شاعر وكاتب وعالم لغوي، كلاسيكي وأستاذ جامعي وناقد، من أهم أعماله هكذا تكلم زرادشت، رفض نيتشه الأفلاطونية والمسيحية الميتافيزيقا، بشكل عام توفي بداء الرئة.

## ملحق الشخصيات

**هانز رايشنباخ:** ( 1891/1953)؛ فيلسوف وفيزيائي وعالم منطق ألماني ولد في هامبورك، ارتبط اسمه بالوضعية المنطقية وكان على وفاق مع جماعة فيينا، عرف بإسهاماته العلمية وبحوثه الأصلية من أهم مؤلفاته: نسق البديهيات في النظرية النسبية في المكان الزمان وأهداف فلسفته الطبيعية الحالية واتجاهاته نشأة الفلسفة العلمية.

**هانز سبيمان:** طبيب ألماني حصل على جائزة نوبل في الطب لسنة 1935م، تعلم في جامعة هايدلبرغ، عضو في الأكاديمية للعلوم.

**هربرت ماركيز:** بنظر صفحة؛ 67، 68.

### فلاسفة العرب:

**حسن حنفي:** 1935؛ مفكر مصري، فيلسوف وأستاذ جامعي، حاز على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون، كان مدرس للفلسفة في كلية الآداب جامعة القاهرة، من أهم مؤلفاته: التراث والتجديد، حوار الأجيال، مقدمة في علم الاستغراب... إلخ، يعتبر من أهم مفكري العرب المعاصرين، ومن أصحاب المشروعات الفكرية العربية.

# ملحق المصطلحات

## ملحق المصطلحات

**الأزمة:** ارتبط مفهوم الأزمة في الفكر المعاصر بالتحويلات والثورات الكبرى التي قادت العالم نحو المجتمع الصناعي، وقد كان المفهوم يشير إلى المرحلة الانتقالية داخل هذه التحويلات، حيث كانت الأزمة تعين ملامح التوتر التي تلحق أنظمة المجتمع والاقتصاد والثقافة، حيث تحصل الملامح الأولى للتحويلات التي تجعل الانظمة القائمة في مجتمعاتها.

**الاستنساخ:** تقنية تهدف إلى استخلاص خلايا متماثلة لخلية أصلية أولية تسمى خلايا المنشأ أو الخلايا القاعدية أو الجذعية عن طريق تخصيب صناعي.

**الاشتراكية:** مأخوذة من الاشتراك وهي اصطلاح جديد يطلق على المذهب الاجتماعي المضاد للمذهب الفردي وهو مذهب يعلق حياة الفرد بحياة المجتمع وهي عكس الرأسمالية.

**الاغتراب:** نعني به = العجز أي الشعور بأن مصير الإنسان ليس في يده اللامعنى أي الحياة المعدومة الهدف اللامعيار أي عدم الالتزام بالمعايير السائدة، العزلة الثقافية أي الانفصال عن قيم المجتمع، العزلة الاجتماعية أي الشعور بالوحدة، العزلة الذاتية أي انفصال الذات عن ذاتها أو منتوجاتها.

**إيروس:** إله الحب عند اليونان وإيروس أيضا هو الحب أو الرغبة الجنسية الشديدة وهي مقابلة للصدقة والمحبة.

**التبيؤ البشري:** هو فرع من علم البيئة الذي يطبق على البشر، فهو ينقسم في بيئة الحياة البشرية إلى مستويات مختلفة على سبيل المثال من خلال دراسة الإنسان والنظم البيئية،

**التشيؤ:** تعني تحول العلاقات بين البشر إلى ما يشبه العلاقات بين الأشياء علاقات آلية غير شخصية ومعاملة الناس باعتبارها موضعاً للتبادل أي حوسلة البشر باعتبارهم أشياء.

بينما كانت مهمة لفترة طويلة من طرف علماء البيئة، وتعتبر البيئة البشرية الانسان كعامل جديد، فهي تدرس أثر نشاطه على محيطه.

## ملحق المصطلحات

**التقدم:** هو السير إلى الأمام أو الحركة إلى جهة معينة وهو ضد التراجع والتأخر.

**الخيال:** وهو الظن والتوهم وهو يدل في اصطلاحنا على الصورة الباقية في النفس بعد غيبة المحسوس عنها.

**الرأسمالية:** نظام اجتماعي يكون فيه العمال غير مالكين للثروات التي يستثمرونها، وهو عكس الاشتراكية.

**سيكوبيولوجيا:** هي جمع بين كلمة بيولوجي باللغة الإنجليزية وتعني علم الأحياء وكلمة سيكولوجي باللغة الانجليزية تعني علم النفس والربط بين الكلمتين تصبح سيكولوجي لان الإنسان جسد وروح.

**الطوباوية = اليوتوبيا :** ينظر صفحة؛

**الفكر الغائي:** الغائية هي النظرية التي تزعم أن كل ما في الطبيعة وما يجري فيها من عمليات إنما يتوجه إلى تحقيق غاية معينة، فالغائيات هي علم الغايات إذ ترى أن العلة هي الكامنة وراء أنواع التغيرات كلها، حتى السلوك الإنساني الأكثر عقلانية يفسر عامة بأنه خاضع لتأثير الغاية، وإذا أشتملت الغائية الفكر سمي الفكر الغائي

**فلسفة البيئة:** هو فرع من فروع الفلسفة الذي يهدف إلى دراسة البيئة الطبيعية والمكان وعلاقته بالإنسان وتشمل الفلسفة البيئة على الأخلاقيات البيئية وعلم الجمال البيئي والإيكولوجية السنوية، وتهتم بدراسة الظواهر الطبيعية برؤية فلسفية في تصاعد الأزمة البيئية للقرنين العشرين والواحد والعشرين.

**الفن:** جملة من القواعد المتبعة لتحقيق غاية معينة جمالا كانت أو خيراً أو منفعة.

## ملحق المصطلحات

**الموت الرحيم:** طريقة من طرق تخفيف الألم وذلك بتسريع الموت، وهو إجراء تدخل معتمد مع الإعلان عن النية في إنهاء الحياة للتخفيف من معاناة مستعصية على الحل كما يعني التعبير العلمي المعاصر لما يعني تسهيل موت الشخص المريض الميؤس من شفائه بناء على طلب مقدم من طبيبه المعالج.

**الموت الدماغى:** هو التوقف الكامل لنشاط الدماغ، بما في ذلك قدرته على التحكم اللاإرادي بالوظائف الحيوية، نتيجة موت عصبونات الدماغ والقطع الرقبية العليا للنخاع بسبب توقف الدوران والأكسجة، مع استمرار الدوران والتهوية بفضل التهوية الآلية المستمرة.

**الوهم:** من قبيل التصور والتخيل يطلق على كل صورة ذهنية لابقائها في الوجود الخارجي، ويطلق على خطأ في الإدراك أو الحكم أو الاستدلال شريطة أن يظن أنه خطأ طبيعى.



## قائمة المصادر والمراجع

## قائمة المصادر والمراجع

### ا. المصادر:

1. هيرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة : جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، ط3، بيروت، 1988م.
2. هيرت ماركيز: البعد الجمالي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط2، بيروت، 1982.
3. هيرت ماركيز: الحب والحضارة، ترجمة مطاع الصفدي، دار الآداب، ط2، بيروت، 2007م.
4. هيرت ماركيز: العقل والثورة، هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية، ترجمة: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، دم، 1970م.
5. هيرت ماركيز: فلسفة النفي، دراسات في النظرية النقدية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2012م.
6. هيرت ماركيز: نحو ثورة جديدة، ترجمة عبد اللطيف شرارة، دار العودة، ط1، بيروت لبنان، 1971م.
7. HERBERT MARCUSE : LE NARXISEME SOVIÉTIQUE, Ed , qallimard , paris , 1968 .

### اا. المراجع

1. أر إيه بوكانان: الآلة قوة وسلطة، التكنولوجيا والإنسان منذ 179 حتى الوقت الحاضر، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، 1996.
2. أرنست ماير: هذا هو علم البيولوجيا دراسة في ماهية الحياة والأحياء، ترجمة :عفيفي محمود عفيفي، عالم المعرفة، الكويت، 1990.
3. إيمانويل كانط: ما هو التنوير، ترجمة :حسن إسماعيل، دون ناشر، دون سنة.
4. بول أرويسون: اليسار الفرويدي، ترجمة: عبده الرئيس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004.



## قائمة المصادر والمراجع

5. توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت، ترجمة: سعد هجرس، دار أوبيا للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، ليبيا، 2004.
6. جاكين روس: الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة: عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، لبنان، 2001.
7. دوارد س كاسيدي، بيتر غروسمان: مدخل إلى الطاقة المصادر والتكنولوجيا والمجتمع، ترجمة: صباح مذبق الدملوحى، سلسلة كتب تقنية الإستراتيجية، دون سنة.
8. دون أد: مدخل إلى الفلسفة التكنولوجية، ترجمة: فريال حسن خليفة، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، 2009.
9. ستيفن إريك برونر: مقدمة قصيرة جداً النظرية النقدية، ترجمة سارة عادل، هنداوي للنشر والتوزيع، مصر، 2012.
10. سيرافينا كومو: التقنية في العصور القديمة، ترجمة: مصطفى قاسم، مكتبة مؤمن قريش، ط1، أبوظبي، 2012.
11. هانز رايشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1979.
12. هنري هودجر: التقنية في العالم القديم، ترجمة: زنده قاقيش، الدار العربية للتوزيع والنشر، عمان، 1988.
13. فيل شليتر: مدرسة فرانكفورت، نشأتها ومغزاها، ترجمة: خليل كلفت، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 2004.
14. يورغن هابرماس: العلم والتقنية كاديولوجيا، ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل، ط1، ألمانيا، 2002.
15. يورغن هابرماس: النظرية النقدية التواصلية، ترجمة حسن مصدق، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت 2005.

## قائمة المصادر والمراجع

16. جمال مفرج: الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الإخفاقات، الدار العربية للعلوم، 2009.
17. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 2009.
18. حسن محمد حسن: النظرية النقدية عند هيربرت ماركيز، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1993.
19. حسن مصدق، على المحداوي، وآخرون: البيوايطيقا والمهمة الفلسفية، الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة، دار الأمان، بيروت، 2014.
20. رشيد الحمد محمد سعيد صباريني: البيئة ومشكلاتها، عالم المعرفة، الكويت، 1990.
21. رياض أحمد عودة: الإستتساخ في ميزان الإسلام، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2003.
22. زلوم عبد القيم: حكم الشرع في الإستتساخ وقضايا أخرى، /دم/، 1985.
23. سعيد محمد الحفار: البيولوجيا ومصير الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، 1984.
24. سهير عبد السلام: مفهوم الاغتراب عند هيربرت ماركيز، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2003.
25. عبد الحفيظ محمد سلامة: وسائل الاتصال والتكنولوجيا في التعليم، دار الفكر، ط6، الأردن، 2006.
26. هيفاء النكيس، وآخرون: الأخلاقيات التطبيقية والرهانات المعاصرة للفكر الفلسفي، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016.
27. عبد الوهاب بن رجب هاشم بن صادق: جرائم البيئة وسبل المواجهة، مركز الدراسات والبحوث، ط1، الرياض، 2006م.
28. عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت 2002.

## قائمة المصادر والمراجع

29. علاء طاهر: مدرسة فرانكفورت من هوركايمر إلى هابرماس، منشورات مركز الانماء القومي بيروت، دون سنة.
30. فؤاد زكريا: هيرتماركيوز: دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2013.
31. قيس هادي أحمد: الإنسان المعاصر عند هيرتماركيوز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980م.
32. كمال بومنير: جدل العقلانية في الفلسفة النقدية لمدرسة فرانكفورت، نموذج هيرت ماركيوز، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، 2012م.
33. كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركايمر إلى أكسل هونيث، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010م.
34. محمد الجوة: مفهوم القمع عند فرويد وماركيوز، دار المعرفة الجامعية، مصر، د ط، 2003.
35. محمد سبيلا: مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، د ط، 2009م.
36. محمد السيد عبد السلام: التكنولوجيا الحديثة، عالم المعرفة، الكويت، 1982م.
37. مصطفى كحلن وأخرون: الأخلاقيات التطبيقية والرهانات المعاصرة للفكر الفلسفي، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية الجزائر، 2016م.
38. مصطفى النشار: مدخل إلى فلسفة البيئة والمذاهب الايكولوجية المعاصرة، دار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 2015.
39. نعمة الله عيسي: الإنسان والبيئة، دار المنهل اللبناني، ط1، لبنان، 2002.

### III. المجلات والدوريات:

1. أوراق فلسفية، مجلة علمية محكمة، العدد 19، القاهرة، 2008م.
2. التعليم الالكتروني والتعليم عن بعد بالجامعة الجزائرية، دراسة للواقع في ظل مشروع البرنامج الوطني للتعليم عن بعد، مجلة المكتبات والمعلومات، العدد3، 2010م.

## قائمة المصادر والمراجع

3. التعليم الإلكتروني والتعليم التقليدي دراسة تحليلية مقارنة، كلية بغداد للعلوم الاقتصادية، العدد 19، 2009.
4. تطور مفهوم التكنولوجيا واستخداماته في العملية التعليمية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 11، جامعة محمد خيضر بسكرة، جوان 2013م.
5. روايات أصابعنا التي تحترق في ضوء نظرية يوتوبيا لولز، دراسات الأدب المعاصر، جامعة الخوارزمي، العدد 17 دون سنة.
6. الرؤية النقدية للفن عند هيربرت ماركيز، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد 36، العدد 5، سوريا، 2014.
7. العلم وأزمة المجتمع الغربي المعاصر، مجلة جامعة دمشق، مجلد 30، العدد 43، 2014م.
8. فلسفة فيزياء الدقائق المضادة للمادة وأثارها العلمية الاجتماعية، مجلة كلية الآداب، العدد 99، جامعة بغداد، قسم الفلسفة. دون سنة.
9. النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت تمهيد وتعقيب نقدي، مجلس النشر العلمي، حوليات كلية الآداب، الحولية 13، الكويت، 1993.

## IV. المعاجم و الموسوعات:

1. ابراهيم مذكور: العجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، 1983.
2. اندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات ، المجلد الاول، ط2، 2001م.
3. جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، المنطقة المتكلمون اللاهوتيون المتصوفون، دار الطليعة، ط3، بيروت، 2006.
4. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1966م.
5. فيصل عباس: موسوعة الفلاسفة، دار الفكر العربي، بيروت، 1996م.

٧. رسائل جامعية:

١.

# الفهرس

## الفهرس

مقدمة:.....أ، ب، ج.

الفصل الأول: مفهوم التقنية وتدخلها في تحديد مصير الإنسان:

مفهوم التقنية:.....ص 14.

مفهوم التكنولوجيا:.....ص 20.

أهم مجالات تدخل التقنية:.....ص 26.

مجال الطب:.....ص 28.

مجال التعليم الإلكتروني:.....ص 39.

مجال البيئة:.....ص 47.

مجال الفيزياء النووية:.....ص 59.

الفصل الثاني: أزمة المجتمع الصناعي الغربي المعاصر:

تأسيس مدرسة فرانكفورت وأهم روادها:.....ص 66.

التنوير: مفهوم والنشأة:.....ص 73.

العقل الأداتي:.....ص 80.

المجتمع القمعي التسلطي:.....ص 85.

التكنولوجيا كأداة سيطرة سياسية اقتصادية ثقافية:.....ص 92.

التكنولوجيا والتدمير:.....ص 104.

### الفصل الثالث: الأمل الماركسيوزي وأفاق تغيير المجتمع الغربي

- الثورة:.....ص 109
- الفن والإستيطيقا:.....ص 119.
- اليوتوبيا والخيال:.....ص 130.
- خاتمة:.....ص 140.
- ملحق المصطلحات:.....ص 142.
- ملحق الشخصيات:.....ص 146.
- قائمة مصادر والمراجع:.....ص 148.
- الفهرس:.....ص 153.